محمد عباس نور الدين

التمويه
في المجتمع العربي السلطوي

قراءة نفسية اجتماعية للعلاقة بالذات والآخر

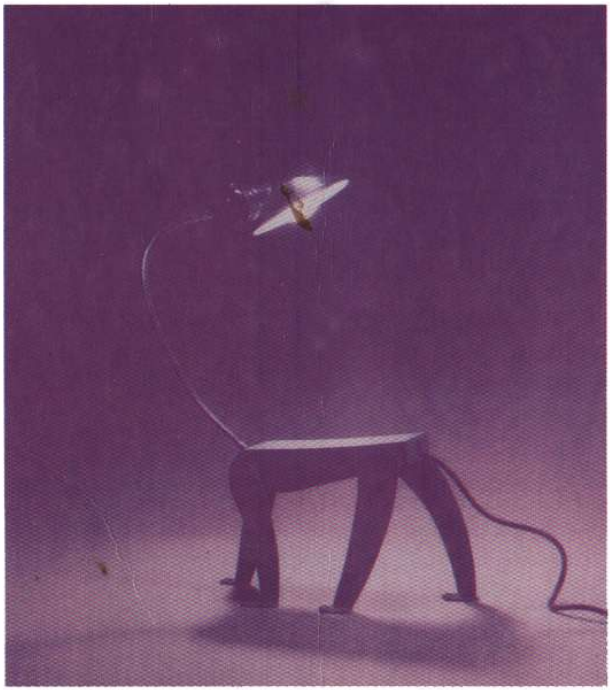

المركز الثقافي العربي

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة الفكر الجديد

من كتب
عبير الربيعي

التمويه
في
المجتمع العربي السلطوي

(مقاربة نفسية اجتماعية لطبيعة علاقاتنا:
بالطفل، بالفقير، بالمرأة، وببعضنا البعض)

مكتبة
الفكر
الجديد

الكتاب

التمويه في المجتمع العربي السلطوي

المؤلف

د. محمد عباس نور الدين

الطبعة

الأولى، 2000

عدد الصفحات: 176

القياس: 14.5 × 21.5 سم

جميع الحقوق محفوظة

الناشر:

المركز الثقافي العربي

● **المملكة المغربية**

الدار البيضاء:

42 ـ الشارع الملكي (الأحباس)

ص.ب: 4006 (درب سيدنا)

هاتف: 303339 ـ فاكس: 305726

● **لبنان ـ بيروت**

شارع جان دارك، بناية المقدسي

ص.ب: 5158 ـ 113 ـ الحمراء

هاتف: 750507 ـ 352826

فاكس: 343701 ـ 9611+

مكتبة الفكر الجديد

الدكتور محمد عباس نور الدين

التمويه في المجتمع العربي السلطوي

(مقاربة نفسية اجتماعية لطبيعة علاقاتنا: بالطفل، بالفقير، بالمرأة، وببعضنا البعض)

تقديم
الدكتور هشام شرابي
أستاذ الفكر الأوروبي المعاصر
جامعة جورجتاون ـ نيويورك

المركز الثقافي العربي

مكتبة الفكر الجديد

تقديم

الدكتور هشام شرابي

التمويه والكذب يلتقيان في هدف واحد وهو حجب الحقيقة، لكنهما يختلفان في أسلوبهما في حجب الحقيقة.

في الكذب تنفى الحقيقة وتستبدل بكذبة. أما في التمويه فالحقيقة لا تنفى، ولاتظهر بشكل كذبة، بل تظهر بشكل حقيقة أخرى تدعي أنها الحقيقة الصحيحة.

الكذب عملية واضحة وسهلة أما عملية التمويه فصعبة ومعقدة. عملية التمويه، على شكل تعبير لغوي وعلى شكل عملية فكرية، تنبع من وهم يحصل في الواقع، فيحرف الواقع بتمويهه.

ولأن الواقع الذي نعيشه كأفراد وجماعات (نفسيا واجتماعيا) هو واقع مؤلم لايحتمل، فلا مهرب منه إلا بصنع أو قبول بديل متخيل له. بهذا نبقي على الواقع الذي نعيشه من خلال تصور يحجب حقيقته المرة عنا.

في العلوم الاجتماعية وعلم التحليل النفسي (وبخاصة عند «هابرماس وفرويد») يلعب مفهوم التمويه دورا مركزيا في عملية التفكيك الإيديولوجي كما في عملية التحليل النفسي.

مكتبة الفكر الجديد

في هذا الإطار، يتضح لنا هدف مؤلف هذا الكتاب الصغير في حجمه والكبير في مرماه، وهو كسر حلقة التمويه المفرغة على الصعيدين الفردي والاجتماعي.

إنه في تحليله الناقد لايبغي معرفة أكاديمية مجردة بقدر ما يهدف إلى إحداث تغيير في المجتمع ذاته، في بنيته وعلاقاته ومسلك أفراده. هنا تصبح المعرفة، حسب تعبير «هابرماس وفرويد» أداة تحرير وانعتاق.

والاستراتيجية التي يتبعها هي استراتيجية «فرويد وهابرماس» التي تعمل على ثلاثة أصعدة : على الصعيد الأول يتناول المؤلف أشكال التمويه المختلفة التي يعاني منها الفرد نفسيا وسلوكيا ويربطها بأشكال التمويه الذي يعاني منها المجتمع الأبوي ككل. وعلى الصعيد الثاني يركز على وصف السياق الاجتماعي والقيم السائدة والتقاليد والعادات التي تؤدي إلى نشوء هذه الظواهر المرضية الاجتماعية والذاتية. أما على الصعيد الثالث فيركز على الوسائل التي يمكن من خلالها الكشف عن الواقع المعاش واستنباط المفاهيم البديلة لمجابهة التمويه الأيديولوجّي السائد وبناء وعي جديد يقوم على رؤية جديدة متحررة.

يحرص المؤلف عند كل منعطف في هذا النص الواضح والجريء، على تذكير القارئ، بأسلوب مباشر وصريح بأن الحل لما يجابهه بصفته الذاتية (كفرد) وما يعاني منه مجتمعه الكبير يمكن التوصل إليه إذا وقف بوجه التمويه ورفض الخضوع لأيديولوجية السلطة الأبوية وعمل لتكوين وعي جديد قادر على كشف الواقع وعلى نقده وتغييره.

مكتبة الفكر الجديد

7

المجتمع العربي الأبوي السلطوي والتمويه

«السلطة ليست في مكان واحد، إنها في الحارس الذي يراقب السجن بحرص شديد، في صاحب الفرن الذي يبيع الخبز للسجن ويشعر بالفرح لأن السجن موجود».

ميشيل فوكو

مكتبة الفكر الجديد

إن المجتمع الأبوي السلطوي يفسد العلاقات بين البشر ويجعل منها علاقات يتحكم فيها الأعلى بالأدنى، ويتحكم الأدنى بالأدنى منه. والمجتمع العربي لكونه مجتمعا أبويا سلطويا فإنه يفرغ العلاقات الاجتماعية من محتواها الإنساني ويجعل منها علاقات بين أقوياء وضعفاء. وحتى الضعفاء يتحولون إلى أقوياء بالنسبة لمن هم أضعف منهم. وبذلك يكون الجميع ضحية الأقوياء والضعفاء لأنهم فقدوا قدرة التعامل الأفقي أو الإنساني التي تقوم على الاعتراف بالآخر على أساس الحرية والمساواة.

«حب» السلطة كتعبير لاشعوري عن موقف عدائي منها :

هناك ظاهرة تتكرر في حياة الإنسان العربي وبأشكال مختلفة وتتجلى في ما يبديه كثير من الناس، وبكيفية تلقائية، من «حب» للسلطة التي يخضعون لها، سواء في المدرسة أو الإدارة أو المصنع... إن المجتمع السلطوي ينتج **شخصية ذات طبيعة مزدوجة**، فهي من ناحية تبدي استعدادا كبيرا للخضوع والتبعية ومن ناحية أخرى تبدي ميلا عدوانيا واضحا. وفي كلا الحالتين فإن موقف هذا النوع من الشخصية المزدوجة لايتسم بالمعقولية. ولكي

مكتبة الفكر الجديد

تخفي هذه الشخصية الميل العدواني فإنها تكبته في اللاشعور وتعبر عنه في الشعور على شكل «إعجاب شديد بالسلطة» و«حب» أعمى لها. وبهذه الطريقة تكون الشخصية قد أبعدت الميل العدواني من ساحة الشعور وحققت نوعا من التوازن الظاهري بحيث يخف الشعور بالإذلال لكون الشخص يجد تبريرا لخضوعه للسلطة على اعتبار أنه «يحب» السلطة ويعجب بها[1]. فالطفل الصغير في المجتمع العربي يروَّض منذ الصغر على تقبل سلطة والديه وبصفة خاصة سلطة الأب، ويطلب منه أن لايثور عليها أو يعارضها. لذا فإن الطفل يجد نفسه مضطرا - ما دام لايستطيع مواجهة هذه السلطة - أن يكبت عداءه لها ويبدي «حبه» وإعجابه بها. والإعجاب التلقائي والشديد بالسلطة يصبح فيما بعد إحدى الصفات التي تتميز بها شخصية الإنسان العربي. فأينما اتجهت فإنك تجد من يتكلم بإعجاب وبمبالغة لا عقلية عن أستاذه أو مديره أو رئيسه أو زعيم حزبه... أو أي شخص يمارس عليه سلطة ظاهرة أو خفية، مباشرة أو غير مباشرة. وليس من باب الصدفة أن يكون المدح والهجاء من أبرز أغراض الشعر العربي. ولكي تحافظ الشخصية على حد من التوازن فإن الشخص الذي يعاني من هذا الازدواج يشعر بأن إعجابه بالسلطة هو إعجاب صادق وبريء وله ما يبرره من الناحية المنطقية. وبهذه الطريقة يجد تبريرا مقنعا لقبوله بوضعية الاذلال التي يعيشها، ذلك أن السلطة التي تقمعه لن تعود موضع كره وإنما موضع «حب» وإعجاب. وبذلك يقنع نفسه بأنه

---

(1) حجازي (مصطفى) التخلف الاجتماعي، مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور. معهد الإنماء العربي، بيروت 1980. ص 132، 136.

مكتبة الفكر الجديد

يقبل بهذه السلطة لا لشيء إلا لأنه يحبها .[2]

وفي **العلاقة الجدلية بين العبد والسيد** ما يشرح لنا هذا الموقف: فالعبد قد يبلغ لديه كبت الميل العدواني إزاء سيده إلى درجة تجعله يبدي نحو سيده «حباً» وتعلقا شديدين. ويكفي أن يضمن السيد للعبد حدا أدنى من الطعام والحماية لكي يعتبر العبد ذلك مبررا كافيا لحبه وإعجابه بسيده.

والشخصية المزدوجة التي ينتجها المجتمع الاستبدادي السلطوي، وإن كانت تخفي ميلها العدواني إزاء من هم أقوى منها، إلا أنها تظهر وبكيفية واضحة ميلا عدوانيا إزاء من تعتبرهم في مستواها أو أضعف منها. بل إن مجرد وجود هذه الشخصية أمام إنسان آخر يبدو ضعيفا يثيرها ويشعرها بالقوة وبرغبة في السيطرة عليه. وبعض ما يردده الإنسان العربي من أمثال وحكم يؤكد الطابع المميز للشخصية العربية كشخصية استبدادية. بل إننا لانستغرب أن يعلق البعض في منزله أو في مكان عمله مثل هذه العبارات : «إن لم تكن ذئبا أكلتك الذئاب... » «إنما العاجز من لايستبد...» «اتق شر من أحسنت إليه ... إلخ». وهذا الجانب من الشخصية الاستبدادية يتجلى على الخصوص في الطبقات الدنيا من المجتمع العربي [فالقمع الذي يتعرض له الفرد في هذه الطبقات يُحدث لديه توترا نفسيا لايستطيع أن يتخلص منه بتوجيهه إلى مصدر التوتر وإنما يسقطه على الآخَرين من أمثاله لأتفه الأسباب وفي كثير من الأحيان بعنف لايتناسب مع الأسباب الظاهرية

(2) زيعور (علي). قطاع البطولة والنرجسية في الذات العربية. دار الطليعة، بيروت، 1982، ص 215-216.

مكتبة الفكر الجديد

والمباشرة [3]. وهكذا يتحد الطابع **السادي والماسوشي في** الشخصية العربية : فمن ناحية يبدي الإنسان العربي «حباً» تلقائيا للسلطة التي يخضع لها، ومن ناحية أخرى يبدي نزعة عدوانية صريحة إزاء من يعيشون نفس الوضعية التي يعيشها أو الذين يعتبرهم أضعف منه.

السلطوية تعيق نمو الطفل وتحول دون نضج المواطن وتشوه علاقته بالمجتمع والدولة :

تبدأ ممارسة الاستبداد في المجتمع العربي الأبوي على مستوى الأسرة وتنتقل هذه الممارسة تدريجيا إلى المستويات الأخرى : مستوى المدرسة ثم الجامعة ثم العمل (إدارة، مصنع... إلخ). وعلى مستوى الأسرة تحول المعاملة الاستبدادية دون تحقيق الطفل لاستقلاله الذاتي، وينتج عن ذلك شخصية قلقة تعاني من عدم الثقة بالنفس وضعف الشعور بالمسؤولية ومن الجبن والاتكالية [4]. كما ينتج عن ذلك أن الطفل لا يكوّن صورة حقيقية عن ذاته، إذ أن هذه الصورة تظل رهينة بموقف الآخرين منها.

---

(3) عالج «فرانز فانون» (وهو طبيب للأمراض العقلية) هذه الظاهرة في كتابه «معذبو الأرض» (ترجمة سامي الدروبي وجمال الأتاسي. دار القلم. بيروت. 1972) حيث فند مزاعم بعض الفرنسيين الذين ذهبوا إلى أن الجزائري يميل بالفطرة إلى الانحراف والإجرام، مؤكدا على أن الوضع الاستعماري في الجزائر هو المسؤول الرئيسي عن التوتر الذي عاناه الجزائري - خلال الاحتلال -، وإن هذا التوتر هو السبب الرئيسي في كثرة الإجرام بين الجزائريين حيث يسقط الجزائري - لأنفه الأسباب - توتره على أمثاله عندما لايستطيع أن يسقط هذا التوتر على المستعمر نفسه.

(4) شرابي (هشام)، مقدمات لدراسة المجتمع العربي، دار الطليعة، بيروت 1991- ص 46.

مكتبة الفكر الجديد

وعلى الرغم من ذلك يطلب من الأبناء في المجتمع العربي أن يلهجوا دائما بالاعتراف بالجميل إزاء آبائهم الذين كانوا السبب في مجيئهم إلى هذا العالم وبذلوا كل ما يستطيعون في سبيل عنايتهم وتنشئتهم. وينسى الآباء، كما يقول «ألفريد سوفي»: «إن عليهم أن يعترفوا هم أيضا بالجميل إزاء أبنائهم الذين يطيلون حياتهم نحو المستقبل، لكي لايتحولوا إلى ثمرات جافة»[5].

ونفس الصورة تتكرر على مستوى علاقة الفرد بالدولة، إذ يطلب من الفرد أن ينتهز كل فرصة ممكنة ليكبل الثناء والمديح للدولة التي منت عليه بكل ما يتمتع به لا باعتبار ذلك حقا من حقوقه وإما باعتباره هبة من السلطة، وما على المواطن إلا أن يخضع خضوعا تاما للسلطة رغم أن ولاءه لها يظل دائما مشكوكا فيه.

وهذا الجو لايساعد على نضج المواطن وشعوره بحقوقه الطبيعية وبواجباته إزاء المجتمع، وعلى تمثله لفكرتي القانون والعدالة وممارستهما في الواقع. وبذلك تشوه العلاقة بين الدولة والمواطن لتصبح علاقة تقوم على التبعية والطاعة ويغيب مفهوم العقد الاجتماعي الذي يجعل من الدولة أداة لضمان حقوق الأفراد وممارستهم لحرياتهم المدنية.

المجتمع الأبوي السلطوي لايساعد على انتشار الموضوعية في الفكر والتوازن في السلوك :

عندما تسود المجتمع شخصية سلطوية ينشأ جو نفسي

---

(5) راجـــع : SAUVY (Altred), La révolte des jeunes. Ed. Calmann Lévy. France p: 81.

مكتبة الفكر الجديد

واجتماعي وثقافي لايسمح بانتشار الموضوعية في التفكير والتوازن في السلوك. فعلى صعيد الفكر تنتشر الأحكام المسبقة والقوالب الفكرية الجاهزة التي تعفي الفرد من المواجهة الموضوعية والمعقولية، وتتيح له فرصة تجريح الآخرين والتعبير عن ميله العدواني إزاءهم. ولا أدل على ذلك مما يتبادله المفكرون العرب فيما بينهم من نقد أبعد ما يكون عن الموضوعية والنزاهة، بحيث يصل في بعض الأحيان إلى ما يشبه الشتم والسب. وهذا النوع من النقد الذي يسود الوسط الثقافي في المجتمع العربي ما هو إلا صورة مصغرة للنقد الذي يمارسه الأفراد فيما بينهم والذي يكتسي طابعا عدوانيا واضحا. فيكفي أن يكون الفرد ناجحا في حياته العملية حتى يكون بالنسبة للآخرين، وحتى المقربين إليه، مصدر شعور بالقلق والحسد والغيرة. وغالبا ما يكون هذا الشعور مبهما وغامضا ويعبَّر عنه بطريقة تجعل الشخص الذي ينتقد يبدو وكأنه أكثر تمسكا بالعادات والتقاليد والقيم الاجتماعية والأخلاقية. فقد تجد من ينتقد كاتبا ما دون أن يكون قد قرأ أي شيء مما كتبه هذا الكاتب، أو تجد من ينتقد إنسانا ما دون أن تكونِ له أية معرفة حقيقية به.

وعلى صعيد السلوك تنتشر أساليب الخداع والتمويه والنفاق وكل ما من شأنه أن يبعد الإنسان العربي عن مواجهة موضوعية ومعقولة. وتؤطر هذا النوع من التفكير وهذا النوع من السلوك مجموعة من المفاهيم التي تصبح بمثابة «قيم» فيصبح النفاق «أدباً ومراعاة» ...، وتصبح الرشوة «تعويضاً عن أتعاب»...، ويصبح التزلف «مسايرة للظروف»، وبذلك تختلط الأوراق اختلاطا كبيرا بحيث تعطى معاني مختلفة لكلمة واحدة ويعبَّر بكلمات متناقضة

مكتبة الفكر الجديد

عن معنى واحد... ويسود المجتمع لغو من الكلام لايساعد على نمو الفكر الموضوعي والعلمي.

دور الأسرة والتقاليد في التمويه :

إن الأُسرة في المجتمع العربي تلعب دورا رئيسيا في تكوين الشخصية الاستبدادية للإنسان العربي لكي ينشأ الطفل نشأة تجعله قابلا للتكيف بسرعة مع المجتمع الأبوي السلطوي. وغالبا ما تبدوالعلاقات بين أفراد الأسرة في المجتمع العربي وكأنها قائمة على أساس الاحترام والحب والتعاون المتبادل... إلا أن هذه العلاقات تقوم في الواقع على أساس عدواني يتجلى في مواقف الغيرة والحسد والخلاف. فرغم طابع الوئام الذي قد يسود بين أفراد الأسرة العربية إلا أن هذا الوئام سرعان ما يزول، ولأسباب بسيطة وتافهة، ليظهر الميل العدواني واضحا وجليا، والخلافات التي قد تقع بين الإخوة والأقارب أصدق مثال على ذلك.

والطفل العربي يعوَّد منذ صغره أن يضمر نزعة عدوانية إزاء أخيه، وذلك بسبب التمييز الذي يمارسه الآباء في معاملتهم لأبنائهم سواء عن قصد أو بدون قصد. وفي نفس الوقت الذي تغرس الأسرة العربية الميل العدواني في نفس الطفل فإنها تفرض عليه أن يتظاهر بحب واحترام الأشخاص الذين يضمر لهم العداء. واستغابة الآخرين. والنميمة والكذب سلوك يتعوده الطفل منذ الصغر ويكشف عن التناقض الذي ينشأ عليه الطفل : **تناقض بين الظاهر والباطن، بين القول والفعل، بين موقف الآخرين منه وموقفه من نفسه، بين ما بيديه من حب للآخرين وما يضمره لهم من عداء.**

وتتدعم عملية التمويه من خلال الموقف الذي تتخذه الأسرة

مكتبة الفكر الجديد

من قضية الجنس والذي يعكس الموقف الذي يتخذه المجتمع بصفة عامة من هذه القضية. وأقل ما يمكن أن يقال بشأن موقف المجتمع من مسألة الجنس أنه لايعتمد على المواجهة المباشرة والموضوعية للمشكلة. ويظل عالم الجنس في مجتمعنا العربي مرتعا خصبا للخرافة والشعوذة والانحراف والتناقض واللامعقولية. ومن المسلم به أن الطفل يبدي اهتماما بقضية الجنس في مرحلة مبكرة ويطرح أسئلة عديدة بشأنها، بل إن بعض السيكولوجيين وفي طليعتهم «فرويد» ذهبوا إلى أن غريزة الجنس تولد مع الإنسان وتظهر منذ ميلاده، وإشباعها يتخذ أشكالا مختلفة. وعوضا من أن نجيب على أسئلة الطفل الجنسية بموضوعية وهدوء وبشكل يتناسب مع مستوى تفكيره ونموه العقلي والنفسي والاجتماعي فإننا نستمر في موقف القمع واللامعقولية، ونحيط هذا الموضوع بهالة من التخويف والتهديد والخرافة... بحيث يصبح ليس فقط موضوع خوف بالنسبة للطفل وإنما مبعث شعور بالإثم والخجل. ويتعزز هذا الشعور كلما تقدم الطفل في العمر. ويتخذ الإذلال والتخجيل طابعا أكثر قسوة عندما يتعلق الأمر بالأنثى سواء كانت طفلة أو شابة أو زوجة. وبذلك يلعب موقفنا من قضية الجنس دورا هاما في تدعيم إذلالنا للطفل وفي ترسيخ التفكير الخرافي في ذهنه وتثبيت اللامعقولية في سلوكه وأفعاله.

وقد أوضح «رايش» ولاسيما في كتابه «الفاشية وسيكولوجية الجماهير»[6] وجود علاقة بين المجتمع السلطوي والكبت الجنسي.

---

(6) راجـــع : REICH (W.), La psychologie de masse du Fascisme. Ed. Payot. Paris.1974..

مكتبة الفكر الجديد

فالكبت أو القمع الجنسي - في نظره - لايعيق فقط نمو شخصية الطفل والفرد بصفة عامة بل يجعله خاضعا مستكينا يخاف السلطة وغير قادر على التمرد عليها. والقمع الجنسي «لم يوجد من أجل دعم بناء أخلاقي (على نحو ما كان الأمر بالنسبة للدين التقليدي) ولا من أجل الثقافة (كما زعم «فرويد») بل فقط من أجل بناء الشخصية اللازمة للإبقاء على نظام اجتماعي تسلطي» [7].

(7) روبنسون (بول)، اليسار الفرويدي، ،دار الطليعة بيروت، 1974، ص43.

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

التمـــويه
كتعزيز للإيديولوجية الأبوية السلطوية

إلى إقبال مسيح شهيد الطفولة المعذبة في العالم(*)

(*) إقبال مسيح طفل باكستاني في الثانية عشرة من عمره. عندما كان عمره أربع سنوات باعه والده بمبلغ 16 دولاراً أميركياً إلى أحد صانعي السجاد. تبنته إحدى الحركات المناهضة لاستغلال الأطفال وجابت به عدداً من دول العالم واعتبرته مثالاً لما يعانيه الأطفال، لا سيما في العالم الثالث، مما دفع بالحكومة الباكستانية إلى إغلاق عشرات محلات صنع السجاد في الباكستان بسبب تشغيلها للأطفال في ظروف لا إنسانية. وفي 16 أبريل/ نيسان 1995 تم اغتيال إقبال مسيح بينما كان يلعب قرب منزله بضواحي لاهور...

مكتبة الفكر الجديد

إن الطفل في مجتمعنا العربي يعيش واقعاً يحاصره ويتعامل معه من خلال مفاهيم جاهزة لا تعير أي انتباه لرغباته الحقيقية. وتتميز هذه المعاملة بالقسوة واللامعقولية. ففي الوقت الذي يعامل فيه الطفل بقسوة وتقمع رغباته وحاجياته الأولية يعطى صورة مشوهة ولا معقولة عن الطبيعة المحيطة به وذلك كاستمرار للموقف الاستبدادي الذي يُتخذ من الطفل. لذا فإن أطفالنا قلما يعرفون الفرح، ويبدون أحياناً شعوراً غريباً بالقلق والهم، ويتخذون من الآخرين ومن الطبيعة المادية موقفاً لا معقولاً يقوم على الحذر والشك.

إن مثل هذا الموقف من الطفل لايجب أن يطرح من خلال نظرة جزئية منفصلة عن إيديولوجية الاستبداد التي تسود المجتمع بصفة عامة. فإذا وضعنا الموقف من الطفل في مجتمعنا العربي في هذا الإطار الكلي أدركنا المأساة الحقيقية التي يعيشها أطفالنا وتكمن هذه المأساة بأن على أطفالنا أن يتحملوا قمعا يسقطه المجتمع العام على الأسرة التي تقوم هي بدورها بإسقاطه عليهم وذلك قصد تدجينهم وترويضهم منذ الصغر على إيديولوجية الاستبداد، لكي ينشأوا وهم على استعداد لأن يتكيفوا معها سواء بممارستها أو الخضوع لها.

مكتبة الفكر الجديد

العنف ضد الطفل بعمق التمويه وينتج شخصية أبوية سلطوية :

يتجلى الموقف الاستبدادي من الطفل في مظاهر عديدة أبرزها لجوء الأسرة في المجتمع العربي الأبوي إلى استخدام العنف في معاملة الطفل استخداما يجعل من العنف وسيلة إرهاب وقمع وليس وسيلة تربوية كما يعتقد مستخدموها. ومن المسلم به من الناحية السيكولوجية والتربوية أن استخدام العنف في معاملة الطفل يتنافى مع أبسط مبادئ التربية وسيكولوجيا الطفل. وقد يحتج الآباء في مجتمعنا أنهم حريصون على مصلحة أطفالهم ومستقبلهم الشيء الذي يبرر اللجوء إلى العنف والقسوة في معاملتهم. إلا أن مثل هذه الحجة لايقصد منها إلا أن تطمس العنف وتبرره بأن تعطيه طابعا تربويا وتوجيهيا. ومثل هذا التبرير لايغير من واقع العنف شيئا خاصة عندما يتعلق الأمر بالعنف الذي نمارسه على أطفالنا لالشيء إلا لأن أطفالنا غير قادرين على مواجهة العنف بينما نقدر نحن على ممارسته.

إن الجو العام الذي نمارس فيه العنف على الطفل يفقد العنف كل صفة تربوية بل على العكس من ذلك يجعل الطفل يشعر بالظلم وبالتهديد وبأنه محاصر بقوى تترصده، الشيء الذي يحد من انطلاقه وحيويته ويجعله يتخذ إزاء ما يحيط به موقفا يتسم بالخوف والسلبية واللامبالاة. فنحن نمارس العنف على الطفل كي نتخلص من شحنة التوتر النفسي والجسمي الناجمة عن الانفعال. وأثناء ممارسة العنف لاتخطر ببالنا مسألة تربية الطفل وتوجيهه، بل إن كل ما نهدف إليه في هذا الموقف هو أن نسقط على الطفل توترنا فنتحرر منه ونشعر بالارتياح. وقد يُعترض على مثل هذا التفسير

مكتبة الفكر الجديد

بأن الانفعال مسألة لا إرادية، فلا نستطيع في بعض الأحيان إلا أن ننفعل إزاء ما يصدر عن الطفل من أفعال. ولكن المجتمع العام، نظرا لكونه مجتمع استبداد، عودنا على اتخاذ مثل هذا الموقف إزاء الطفل بحجة تنشئته على التمسك بقيم وعادات وتقاليد المجتمع العام.

والذي يجعل المجتمع الاستبدادي ينجح في المهمة التي يسند إلينا تنفيذها هو جهلنا بأبسط مبادئ سيكولوجية الطفل وما يترتب عنها في مجال التربية والتنشئة الاجتماعية، بالإضافة إلى تأكيد المجتمع الاستبدادي على جملة من الأنماط السلوكية والمعايير كما لو كانت أنماطا ومعايير مطلقة يجب التمسك بها تمسكا حرفيا.

[إن الشخصية السلطوية التي ينتجها المجتمع الاستبدادي شخصية قلقة تعاني من القمع الذي تحاول إسقاطه إما على الذات أو على الآخرين، وارتداد القمع إلى الذات يتجلى على الخصوص على شكل شعور بالذنب أو تبخيس للذات وتحقيرها، وقد يصل إلى درجة تدمير الذات (الانتحار). أما إسقاط القمع على الآخرين وهو الأكثر شيوعا، فإنه يتجلى على شكل سوء الظن بالآخرين واغتيابهم واعتبارهم مصدر الشر الذي يترصد الفرد. وقد يصل الأمر إلى درجة اعتبار الآخر مصدرا للتهديد يجب إزاحته من الوجود. لذا تجد الشخصية السلطوية " في اتهام الآخرين راحة مزدوجة : تصريف العدوان بصبه عليهم (الانتقاد) وإثبات البراءة الذاتية (نفي العدوان عن الذات)[1]]

---

(1) KLEIN (Melanie), Notes sur quelques mécanismes schizoides in = developpement de la psychanalyse.. Paris. P.U.F. 1972. P 575.

مكتبة الفكر الجديد

وكنتيجة لنمط التنشئة السائد في المجتمع العربي الأبوي السلطوي يتعود الطفل أن يُسقط على الآخرين مسؤولية ما يرتكبه من الأخطاء. إذا فشل في المدرسة فالمعلم هو المسؤول، وإذا لم يأت في الموعد فالحافلة هي التي تأخرت... إلخ. وينعكس ذلك حتى على العبارات التي نستعملها كي نبرر تخلينا عن المسؤولية ونتخلص بالتالي من الشعور بالذنب. فنقول مثلاً: لقد فاتني القطار، في حين يقول الفرنسي: لقد تخلفت عن القطار J'ai raté le train. وتغرس الأم هذا الموقف المتخاذل في شخصية الطفل عندما تدافع عنه أمام والده أو معلمه أو أمام الجيران بقولها " الحق مش عليه " أي أن المسؤولية لاتقع عليه وإنما على الآخرين. كذلك الشأن في المتهم الذي يعتبر نفسه بريئا فيقول أمام المحكمة إنه "مظلوم" أي أنه لايتحمل مسؤولية ما نسب إليه وأن الآخرين هم المسؤولون[2].

حاجة الطفل للحب لاتقل عن حاجته للغذاء :

قد يعتقد بعض الآباء أن من حقهم استخدام العنف في معاملتهم لأبنائهم ما داموا هم أكثر الناس حبا لأبنائهم. وهذا استنتاج خاطئ إذ لايمكن أن يكون الحب الشديد تبريرا للعنف، بل يمكن اعتبار الآباء في مجتمعنا العربي - وهم يمارسون العنف على أبنائهم - ضحية وعي مزيف رسخته إيديولوجية الاستبداد عبر

= ورد ذكر هذا المرجع في:
- حجازي (مصطفى)، التخلف الإجتماعي، مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور. معهد الإنماء العربي. لبنان. سلسلة الدراسات الإنسانية. علم النفس 1980. ص 196.

(2) شرابي (هشام)، مقدمات لدراسة المجتمع العربي. ص 46.

مكتبة الفكر الجديد

تاريخنا الطويل. إن آباءنا يحبون فعلا أبناءهم وهم في ذلك لايخرجون عن غيرهم من الآباء في العالم، ولكن هذا الحب يجب أن يمارَس في الواقع وفي جو من الاطمئنان ومدعما بالوعي، وبمعرفة سيكولوجية الطفل والحقائق المتعلقة بتنشئته الاجتماعية.

إن حاجيات الأبناء ليست كلها مادية. فكثير من الآباء والأمهات يعتقدون بأن واجبهم الوحيد إزاء أبنائهم هو توفير ما يحتاجون إليه من حاجيات مادية تتمثل في المأكل والملبس والدراسة والترفيه... إلخ. وغالبا ما يفاخرون بأنهم أنفقوا الكثير على أبنائهم ويتباهون بهذا الإنفاق إلى درجة المغالاة التي تخرجهم عن الصدق والموضوعية.

إن مثل هؤلاء الآباء يغيب عنهم أمر هام وهو أن حاجيات الطفل أو الأبناء بصفة عامة ليست مادية فقط بل هي حاجيات نفسية ووجدانية بالدرجة الأولى. إن **الطفل يحتاج إلى الحب والحنان والعطف مثلما يحتاج للغذاء والنوم واللباس**... ويمثل الحب ضرورة لنموه النفسي والاجتماعي كما يمثل الغذاء ضرورة لنموه الجسمي. ويميل كثير من الاباء إلى التقليل من أهمية دور الحب والحنان والعطف في نمو الطفل باعتباره دورا معنويا وغير ملموس، على عكس ما هو الأمر بالنسبة لدور الغذاء والجوانب المادية الأخرى. وهذا الموقف يجعلهم يرتكبون أخطاء في تنشئة أبنائهم قد يكون لها عواقب وخيمة على شخصيتهم وسلوكهم في المستقبل. وفي طليعة هذه الأخطاء، المبالغة في القسوة على الأبناء والتعالي عليهم والابتعاد عنهم وجدانيا واللجوء إلى أساليب القمع والتخجيل واللوم الشديد والتحقير... إلخ.

وقد يرى بعض الآباء أن التعالي على الأبناء والتشدد في

مكتبة الفكر الجديد

التعامل معهم يعلمهم "**الرجولة**" والاعتماد على النفس والخشونة... إلى غير ذلك من المعتقدات التي هي أبعد ما تكون عن أبسط المبادئ النفسية والتربوية المتعلقة بكيفية التعامل مع الطفل وتنشئته الاجتماعية. فمفهوم " الرجولة " لايتعارض مع توفير جو من الحب والحنان للطفل، بل ربما كان العكس هو الأقرب إلى الصواب، ذلك أن توفير مثل هذا الجو سيساعد على تكوين وجدان اجتماعي لدى الطفل يسمح له بالتواصل مع الآخرين والتعاطف معهم والرغبة في مساعدتهم... وهي صفات تعتبر من أبرز سمات الرجولة والشهامة.

وقد يترتب عن عدم توفير جو من الحب والحنان للطفل والقسوة البالغة في التعامل معه... أن يتولد لديه شعور بالدونية وتحقير الذات وخلل نفسي يظل يلازمه في جميع مراحل حياته مهما حقق من نجاح شخصي. والشعور بدونية الذات أو الشعور بالنقص من شأنه أن يضعف لدى الشخص الثقة بالنفس ويجعله يحتمي بالمواقف الهروبية والانسحابية. وما الانتحار، في كثير من الحالات، إلاتعبيرا عن تبخيس الذات التي لم تعد قادرة على التكيف مع الواقع مما يجعلها تعاني من انعدام والتوازن والثقة بالنفس.

عندما يكون تقبيل الطفل تمويها وعلى حساب العفوية والصدق :

إن عالم الطفل هو عالم العفوية والفرح والصدق... ويجب أن يتاح للطفل، وخاصة في المرحلة الأولى من طفولته، أن يعبر عن مشاعره إزاء غيره - بما في ذلك إزاء والديه - بقدر كبير من الحرية والعفوية والصدق. وكقاعدة عامة يجمع عليها المعنيون

مكتبة الفكر الجديد

بشؤون الطفل ولاسيما علماء النفس والتربية. . . يجب أن لا نفرض على الطفل التعبير عن مشاعره بالطريقة التي تعودنا عليها نحن الكبار، وهي طريقة غالبا ما تكون غير عفوية، وتكتسي في كثير من الأحيان طابع المجاملة، وقد تصل أحيانا إلى درجة التمويه والنفاق، إذ كثيرا ما نبدي الحزن أمام الآخرين ونحن لا نشعر بالحزن أو نبدي الارتياح ونحن أبعد ما نكون عن الارتياح. **وازدواجية الظاهر والباطن** ظاهرة في مجتمعاتنا أكثر شيوعا من أي مجتمع آخر.

وكمثال على ذلك، إننا كثيرا ما نقبّل الطفل، سواء كان طفلنا أو طفلا غريبا، للأعراب - ولو ظاهريا - عن محبتنا له. وغالبا ما تكون القبلة على خد الطفل، وقد نطلب من الطفل أن يقبلنا بنفس الكيفية كتعبير عن شعورنا بالحنان والحب نحوه. ولكن قلما نسأل أنفسنا : هل يشعر الطفل فعلا بمحبتنا له من خلال القبلة على خده؟ أو بعبارة أخرى هل يبادلنا الطفل نفس الشعور؟ ألا نلاحظ أن تقبيلنا للطفل يثير لديه أحيانا النفور بل وحتى الاشمئزاز؟ وقد يبدي الطفل في بداية الأمر رفضا لتقبيلنا، ولايستجيب إلا مكرها وأحيانا تحت ضغط منا يصل إلى درجة التوبيخ والتهديد. وليس غريبا أن يقوم الطفل بمسح خده بعد تقبيلنا له لكوننا اقتحمنا عالمه دون إذن منه، لذا فهو يشعر كما لو أنه تعرض للاعتداء، ويحاول إزالة آثار هذا الاعتداء. إذن ما الفائدة من قبلة نطبعها على خد الطفل إذا لم يكن الطفل يبادلنا نفس الشعور؟ أو بعبارة أخرى ما الفائدة من هذه القبلة إذا لم تكن إلا للمجاملة أو لإظهار مشاعر غير صادقة من باب المداهنة والتملق لوالدي الطفل؟

إن الطفل الذي نطلب منه أن يقبلنا، رغم أنه لايشعر برغبة في

مكتبة الفكر الجديد

ذلك، يعتاد التمويه والتخلي عن العفوية والصراحة، كذلك الشأن عندما نقبله من باب المجاملة فإنه سيشعر بانعدام المبرر لتقبيله، وبالتالي سيشعر أن الأمر يدخل أيضا في إطار التمويه والنفاق. وكما يقول **هشام شرابي** إن التمويه الذي يرجع إلى السنوات الأولى من الطفولة يترك آثاره السلبية في شخصيتنا على المدى البعيد لأن "**الضرر الذهني والعاطفي الذي تسببه طريقة تربيتنا ومعاملتنا في الفترة الأولى من حياتنا يصعب تشخيصه وإبراز معالمه في وعينا المباشر، وبالتالي إصلاحه وتجاوزه**[3]". ولو تركنا الحرية للطفل منذ طفولته الأولى للتعبير التلقائي عن مشاعره نحونا لما لجأ الطفل إلى القبلة كأسلوب وحيد للتعبير عن هذه المشاعر. وعندما يقبلنا الطفل فإنه في الغالب يقلدنا ونحن نقبله أو نقبل غيره من الأطفال. ويشير عالم النفس الأمريكي "**برونو بتلهايم**" "بأنه لو كان بإمكان الطفل أن يختار بين القبلة وبين " التنزه " فوق ظهر والده " فإنه لن يتردد في اختيار النزهة فوق ظهر والده[4]". وربما يتذكر بعضنا الآن تلك القبلات التي كان يتلقاها في طفولته من طرف أشخاص يثيرون فيه الاشمئزاز (مسنون، أو أشخاص بلحاهم الكثيفة، أو رائحتهم الكريهة... إلخ) أو يتذكر شعوره بالتقزز عندما يطلب منه تقبيل شخص ينفر منه ولايبادله مشاعر الحب والحنان.

ويجمع المهتمون بشؤون الطفل على أن إشباع حاجة الطفل للحب تلعب دورا هاما في نموّ شخصيته بكيفية متوازنة وسليمة. بل إن الحب هو الغذاء النفسي للطفل الذي يعتبر شرطا ضروريا

---

(3) نفس المرجع السابق. 75.

(4) راجـــــع: BETTELHEIM (Bruno), Dialogues avec les méres. Ed. Robert Lafont. Col Réponses Paris 1982. P. 86.

مكتبة الفكر الجديد

لنمو شخصيته بكيفية سليمة ومتوازنة. وحاجة الطفل للحب من طرف والديه لاتقل عن حاجة جسمه للغذاء المادي (الطعام)[5]، وليست هناك وصفة جاهزة للإعراب عن حبنا للطفل، فقد يشعر الطفل بهذا الحب من دغدغتنا أو مداعبتنا له، أو من ضمه إلى صدرنا، أو اللعب معه بطريقة تتناسب مع عمره وقدراته... إلخ. وإذا كنا نشعر بالرغبة في التعبير عن محبتنا للطفل وارتياحنا له فلنعبر بالطريقة التي يفهمها والتي يمكن بواسطتها نقل هذا الشعور للطفل ليبادلنا إياه، كذلك الشأن بالنسبة للطفل حيث لاتوجد وصفة جاهزة يطلب من الطفل أن يلتزم بها للتعبير عن حبه لنا. ولنترك للطفل حرية التعبير عن مشاعره إزاءنا بالطريقة التي يرغب فيها، ولانفرض عليه شكلا معينا من التعبير، ولندعه يتصرف بعفوية الطفولة وصدقها ومرحها.

بالإضافة إلى ذلك إن للقبلة دلالة جنسية لأن الأمر يتعلق بمنطقة شديدة الحساسية، وهي عندما تمارس بين البالغين تثير لديهم إحساسا بالإثارة المبللة بالغريزة الجنسية. ونحن عندما نحاول تعويد الطفل على التقبيل، سواء تقبيلنا له أو تقبيله لنا، فإننا نفرض عليه طريقة في التعبير عن مشاعره لاتتناسب مع مستواه من النمو البيولوجي والنفسي، مما يجعل القبلة - في هذه الحالة - تؤدي في الغالب وظيفة عكسية. ومن خلال علاقتنا بالطفل يمكن لنا التعرف على الحركات أو الإشارات التي نستطيع بواسطتها التعبير عن محبتنا وتشجيعنا وارتياحنا له، بحيث يدرك هذه المشاعر على حقيقتها ويبادلنا إياها، مما يجعلها تترك أبلغ الأثر في

(5) فهيم (كلير)، الحب والصحة النفسية لأبنائنا. دار المعارف. مصر. ص 151.

مكتبة الفكر الجديد

شخصيته على المدى البعيد.

عندما يتم تسطيح الفكر والمشاعر :

إن المجتمع الأبوي باعتباره مجتمعا سلطويا يقتل في الفرد روح المبادرة والانفعال، ويعزز روح الخنوع والاستسلام، ويؤطر كل ذلك بقيم شكلية، قيم الطاعة والاحترام والرزانة وعدم التهور... إلخ.

وقد يتساءل البعض : لماذا لايظهر بين أطفالنا وشبابنا المبدعون والموهوبون إلا بنسبة قليلة جدا؟ وكيف للإبداع أن يعبر عن ذاته ونحن نطلب من الطفل أن يكبت انفعالاته ومشاعره ليكون متكيفا ومنسجما مع ما نريده منه حسب معاييرنا وقيمنا القائمة في الغالب على أساس التمويه والتزييف والمداهنة "حسن التصرف"... إلخ. وهي قيم من شأنها أن تشكل عائقا كبيرا أمام أي إبداع مهما اختلفت أشكاله. فالعالم اليوناني "**أرخميدوس**" مكتشف قانون سقوط الأجسام في الماء والذي يقال إنه - بعد أن اكتشف هذا القانون وهو يغتسل في الحمام - خرج عاريا إلى الشارع وهو يردد " وجدتها، وجدتها "، ما كان لَه أن يصل إلى اكتشافه الهام لو تعود أن يكبت انفعالاته ولايغامر. فأي إبداع أو أي فكر خلاق - كما يقول المحلل النفسي "إريك فروم" - "يرتبط لا محالة بالانفعال". وإذا كان البعض يعتبر الانفعال نقيض الرزانة والاتزان فإن الفرد الذي يتقبل هذا المعيار " يصبح ضعيفا إلى حد كبير ويفتقر تفكيره ويتسطح[6].

---

(6) فروم (إريك)، الخوف من الحرية، ترجمة مجاهد عبدالمنعم مجاهد. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. 1972. ص 196.

مكتبة الفكر الجديد

المســـاومــة
على الحرية والتخلي عن التلقائية
كإفراز للتمويه

"لاشيء أكثر تاثيرا وفاعلية في سحق معنويات الفرد من إقناعه بانه تافه ورديء".

إيريك فروم

مكتبة الفكر الجديد

إن تأمل الإنسان العربي، وبصفة خاصة في المرحلة الراهنة، يكشف لنا عن ظاهرة تستدعي الوقوف عندها وذلك لارتباطها المباشر بنظرة الإنسان العربي إلى نفسه وتطلعه إلى المستقبل. وتتجلى هذه الظاهرة في التناقض بين الروابط القوية التي تربط الفرد العربي بغيره من الأفراد على مستويات مختلفة، وبين ما يبديه من أنانية واضحة تتخذ أشكالاً عديدة. فظاهرياً يبدي الإنسان العربي تمسكاً قوياً بمعايير السلوك التي حددها المجتمع، إلا أنه في نفس الوقت يبدي نزعة فردية مبالغاً فيها وتتعارض مع ما يظهره من التزام بالمعايير الاجتماعية. وهذه الظاهرة تتخذ بعداً أوسع عندما يتعلق الأمر بالعالم العربي ككل. فعلى الرغم من الأسباب التي تدعو العالم العربي إلى الوحدة (أسباب تاريخية واقتصادية وثقافية وفكرية... إلخ) إلا أنه يعيش حالة شديدة من التمزق والتفكك. وعلى الرغم من الإمكانيات البشرية والمادية الهائلة التي يتوفر عليها العالم العربي، إلا أنه لايلعب على المستوى الحضاري دورا يتناسب مع هذه الإمكانيات.

الأسرة العربية تغرس في الطفل روح المساومة :

إن هذا التناقض الذي يعيشه الإنسان العربي ليس إلا واحدا من سلسلة تناقضات لايمكن فهمها إلا في ضوء الإيديولوجية التي

مكتبة الفكر الجديد

تسود المجتمع العربي والتي تفرض أنماطا سلوكية معينة سواء على صعيد الفرد وعلى صعيد الجماعة. والتناقض يبدأ من مستوى الأسرة الضيق ليتعمق ويتسع تدريجيا ويصبح الصفة المميزة للمجتمع ككل. فالطفل العربي يجد نفسه منذ أن يولد، وهو محاط بالناس حيث يفرض عليه في مرحلة جد مبكرة أن يتعلم كيف يتعامل مع الآخرين ومن خلال مفاهيم وأنماط سلوكية محددة. وعلى سبيل المثال فإننا نطلب من الطفل - وهو لم يتجاوز عامه الثاني - أن يحيي الآخرين وأن يودعهم ويعانقهم ويرحب بهم. ويشاركهم في الحديث. بل أكثر من ذلك إن الطفل وبصفة خاصة لدى الطبقات الوسطى والبرجوازية، ينظر إليه كما لو كان قطعة أثاث جميلة، حيث يعرض على الآخرين الذين يزورون الأسرة، أو قد تصحبه الأسرة معها في زياراتها بدافع عرضه، وقد لبس أحسن ثيابه. وفي هذه الحالات يطلب من الطفل أن يجيد تمثيل الدور الذي حدد له وهو أن يظهر معرفة بآداب السلوك المتعارف عليها، وبصفة خاصة أن يعرف كيف يساير الآخرين بحيث يكون محبباً لهم ويحظى بعطفهم وعنايتهم. والمسايرة بهذا المعنى ليست سوى مساومة مقنعة لأن الطفل لن يتخذ موقفاً نقدياً وموضوعياً من الآخر ما دام هذا الآخر يتودد له ويدغدغ نرجسيته.

وكلما أجاد الطفل هذا الدور كلما كان مثار فخر الأسرة واعتزازها، وكلما شعر بالارتياح والأمن. أما العزلة عن الآخرين فإنها تعتبر بالنسبة للطفل موقفا قاسيا وتشعره بالارتباك وعدم الاطمئنان، بل قد يعاقب الطفل بأن يعزل في مكان ما ويمنع من الاتصال بالآخرين، الشيء الذي يشعره بالتهديد والاضطراب لأنه تعود أن ينظر إلى نفسه باعتباره عضوا في جماعة ومن خلال نظرة

مكتبة الفكر الجديد

الجماعة إليه.[1]

الأسرة العربية تبعد الطفل عن الطبيعة وعن التفكير السببي المنطقي :

وهكذا يُعوَّد الطفل منذ الصغر أن يتخلى عن تلقائيته ليساير الآخرين ويتكيف معهم ويحظى بقبولهم، لذا كان للكلام دور أساسي في نجاح الطفل في أداء هذا الدور، إذ بواسطته يؤكد الطفل ذاته ويحتل مكانة بين الآخرين. أما الصمت فمظهر عجز لايشجع عليه الطفل حتى عندما يكون إنصاتا للآخرين. وإذا كان الطفل العربي لايبدي اهتماما كبيرا بالطبيعة المادية فلأنه تعود أن يتعامل مع كائنات تتكلم. أما الطبيعة فصامتة، وبما أن الصمت عجز فإن الطبيعة لاتثير اهتمامه كثيرا. والاحتكاك بالطبيعة لايفرض على الطفل أن يستمع إليها وإنما أيضا تفرض عليه منطقا معينا هو منطقها الذي يقوم على ربط النتائج بأسبابها المباشرة ربطا ضروريا. وبما أن التربية في المجتمع العربي لاتهدف إلى تعميق التفكير السببي المنطقي فإن الاحتكاك بالطبيعة أمر غير وارد، وإذا ما تم فبطريقة رومانسية خيالية ومن خلال كلمات وتعابير تشكل عائقا أمام الاتصال العملي والمباشر بالطبيعة. وإذا ما قرأنا المواضيع الإنشائية التي يكتبها الأطفال في سنوات دراستهم الأولى والتي يتحدثون فيها عن الطبيعة فسنخرج بنفس النتيجة وهي أن الأسلوب المتبع في التربية يزيد من غربة الطفل وابتعاده عن الطبيعة.

(1) شرابي (هشام)، مقدمات لدراسة المجتمع العربي. ص50-75.

مكتبة الفكر الجديد

ترويض الإنسان العربي يُفقده حريته :

وعلى مستوى الكبار، لو حاول كل منا أن يطرح على نفسه هذا السؤال : هل ما أقوم به من أفعال هو تعبير حر عن إرادتي واختياري، أم أنني أقوم بهذه الأفعال لأتطابق مع نموذج السلوك الذي حدده المجتمع والذي يعتبره المجتمع سلوكا مثاليا؟ إن هذا السؤال يفضح الكثير مما نقوم به من أفعال باعتبارها أفعالا تفتقد إلى عنصر أساسي هو الحرية والعفوية. فنحن نقوم بمثل هذه الأفعال لنؤدي الدور "المنتظر" منا لا للتعبير عن ذاتنا تعبيرا حرا وتلقائيا أصيلا. وكلما نجحنا في أداء هذا الدور وتطابقنا مع النموذج " المثالي " الذي حدده المجتمع كلما ابتعدنا عن ذاتنا، وكلما فقدنا القدرة على التواصل الحقيقي مع الآخرين لنعيش في عزلة قاسية، رغم اللغو الكلامي الذي تحتشد به بيئتنا، ولنتصل بالآخرين اتصالا سطحيا واهيا ومن خلال مفاهيم جاهزة وعادات جامدة. وخلال مختلف مراحل التنشئة الاجتماعية للإنسان العربي يعتاد أن يتخلى عن حريته وعفويته ويخضع أفكاره وعواطفه لقوالب جاهزة. فما يبديه الطفل من عفوية وتلقائية في طفولته الأولى يكون محببا لنا نحن الكبار لأننا فقدنا هذه العفوية التي اغتصبت منا لنصبح أكثر قابلية للترويض والخضوع للإيديولوجيا التي تهيمن على المجتمع. وكلما رُوِّض الإنسان العربي على تقبل إيديولوجية المجتمع السلطوي كلما قُتلت فيه روح الخلق والإبداع والشعور بالحرية، وأصبح " وديعا ومسالما " بل وربما مدافعا عن هذه الإيديولوجيا نفسها التي سلبته الحرية. [2]

---

(2) مغيث (كمال حامد)، علاقة الرجل بالمرأة وسيكولوجية الإنسان المقهور (من خلال الشعر والغناء). مجلة الفكر العربي. العدد 64 يونيو 1991. بيروت 118-119.

مكتبة الفكر الجديد

المجتمع الأبوي الاستبدادي لايخلق جوا ملائما لانتشار الحب والتضامن :

إن المجتمع العربي مجتمع أبوي سلطوي، وفي أي مجتمع سلطوي يزيف الاتصال بين الأفراد لأنه يتم من خلال قوالب سلوكية وفكرية أعدها المجتمع باعتبارها قوالب مطلقة ولايجوز إعادة النظر فيها. وأمام جمود القوالب السلوكية والفكرية يطلب من الإنسان العربي أن يعدل من أفكاره وحتى عواطفه ليتكيف مع هذه القوالب، وبذلك يمر من نفس الطريق التي مر منها الجميع ويحمل نفس العلامة التي يحملها الجميع. وهكذا يصبح الإنسان العربي "أليفا" ولايبدي أي "إزعاج".

وعندما تزيف العلاقات بين الأفراد إلى هذه الدرجة لن يعود هناك مجال للحب الحقيقي. والإنسان العربي، نظرا للضغط الذي تمارسه عليه العادات والتقاليد، فقد قدرته على الاتصال العفوي بالآخر، وأصبح يعيش عزلة أدت به إلى تضخم في الذات أشبه ما يكون بالورم. إن الحب بمعناه الحقيقي يتميز بالعفوية والتلقائية لأنه ينبع من الذات مباشرة، كما أنه تعبير عن حاجة الذات للآخر ورفضها العزلة. والحب بهذا المعنى نادر في مجتمعنا. إن الإنسان العربي يحب ذاته التي تضخمت إلى درجة لم تعد تعترف معها بمشروعية وجود الآخر، على أساس الحرية والمساواة. والآخر لا يُحَب إلا إذا كان يعكس صورتنا. وهكذا يصبح الحب نوعا من النرجسية التي يلعب فيها الآخر دور المرآة. وعندما لايعكس الآخر صورتنا نتخذ منه موقف الشك والحذر بل وحتى العداء أحيانا، لأنه "خان" صورتنا ولم يعكسها بأمانة، لذا نرى أن انتقالنا من **"الحب" إلى "العداوة"** أمر سهل ويتم بسرعة لأن

مكتبة الفكر الجديد

الحب والعداوة يصدران عن ذات واحدة تشعر بالعزلة عن الآخر ولاتعترف إلا بنفسها.

الآخر كوسيلة لتاكيد الذات :

وبنفس التحليل يمكن أن نفهم كثيرا من القيم التي توجه سلوكنا في الواقع والتي تكتسي طابعا غيريا ظاهريا، إلا أنها في الحقيقة تعبير غير مباشر عن نزعة فردية مفرطة. **فالكرم** الذي يكاد يوصف به العربي أكثر من أي إنسان آخر هو في الواقع تعبير عن أنانية الإنسان العربي وتضخم ذاته بكيفية غير طبيعية. والتاريخ العربي يحدثنا عن حالات للكرم تبلغ درجة الأسطورة حيث يبدي الإنسان استعدادا للتضحية بكل ما يملك في سبيل أن يقال " إنه كريم ". ومثل هذا السلوك ينسجم مع ذات الإنسان العربي التي تحاول جاهدة أن تتطابق مع الصورة التي حددها لها المجتمع. فالكرم ليس له قيمة في حد ذاته إلا باعتباره أحد مقومات الصورة التي حددها المجتمع والتي يطلب من الإنسان العربي أن يتطابق معها ولو أدى ذلك إلى ابتعاده عن ذاته. وهكذا يتكور التناقض بين الظاهر والباطن... بين الشعوري واللاشعوري، بين الذات والآخر. وهذا التناقض يفرغ العلاقة بين الذات والآخر من محتواها الإنساني، إذ يصبح الآخر مجرد وسيلة تستعملها الذات لتأكيد نفسها. فالكريم يهمه بالدرجة الأولى رد الفعل الذي يحدثه سلوكه في الآخرين، **ويصبح الكرم كما لو كان تمويها** يقصد منه أن نعطي الآخرين انطباعا عن ذاتنا تختلف عن الواقع الذي نعيشه[3]. وبذلك

(3) حافظ (نجوى) الشخصية العربية : سماتها ومقوماتها. ضمن كتاب : الذاتية العربية بين الوحدة والتنوع. مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية =

مكتبة الفكر الجديد

ينجح المجتمع السلطوي في المساومة ويتخلى الفرد عن عفويته وحريته ليتطابق مع الصورة التي حددها له المجتمع.

بالإضافة إلى ذلك إن مظاهر التقرب من الآخر تخفي موقفا عدائيا منه وترمي إلى تفادي ما يمكن أن يصدر عنه من أذى. فالآخر، سواء كان الطبيعة أو عامة الناس، ينظر إليه كمصدر للشر الذي قد يتعرض له الإنسان، فهو دائما المذنب والمخطئ والشرير. وبهذا الشكل تسقط النزعة العدوانية على الآخر وتتحرر الشخصية من شعورها بالذنب، وما تبديه من " حب " إزاء الآخر ليس إلا وسيلة تمويه تستهدف إخفاء ما تضمره إزاءه من عداء وخوف. (4)

ازدواجية في السلوك والتفكير :

إن مجتمعنا بتكريسه للازدواجية في الشخصية والسلوك والتفكير (ازدواجية الظاهر والباطن... الفكر والواقع... القول والفعل... الشكل والمضمون...) ساعد على إحداث خلل نفسي وعدم توازن انفعالي ونضج اجتماعي لدى الكثير من الأشخاص، حيث يجد الشخص نفسه يحارب في نفس الوقت على جبهتين : جبهة الداخل التي تعتمد السرية والتخفي والمعاناة والصبر والتكتم... وجبهة الخارج التي تعتمد التصنع والمظهرية والتزويق والمحاباة والتمويه والاستغابة.. إلى غير ذلك من الأساليب التي تستهدف التغطية على الداخل وإظهاره بما ليس فيه.

= والاجتماعية. الجامعة التونسية 1978. ص 66.

(4) راجـــع : KLEIN (Melanie), et RIVIERE (Joan), L'amour et la haine. Ed. Payot.. 1972. P 51.

مكتبة الفكر الجديد

وعندما تنكشف بعض ممارسات الشخص على جبهته الداخلية يتحول الأمر إلى ما يشبه الفضيحة. وبذلك فسر القول " إذا ابتليتم **بالمعاصي فاستتروا**" على أنه تبرير للمعصية ما دامت في طي الكتمان والتستر.

والخطير في هذا الانقسام بين جبهتي الداخل والخارج، هو توزع طاقاتنا الفردية وتشتتها وهدر قسط كبير منها، خاصة وأن الخارج يستغرق معظم هذه الطاقة، رغم أنه يمثل الجانب المزيف في شخصيتنا وسلوكنا. وقد يصل الأمر لدى ضحايا هذا الانقسام إلى درجة تجعلهم يوظفون جميع إمكانياتهم لإرضاء الجانب المزيف في شخصياتهم ولو أدى ذلك إلى الخروج عن القانون والقيم الأخلاقية والاجتماعية، وبذلك يعيشون حياة مليئة بالتناقض والنفاق والتصنع والتمثيل... وغالبا ما يتم ذلك والشخص لايعي أنه ضحية وهم خادع ناتج عن الازدواجية في السلوك والشخصية، بل يبدي قناعة بما يفعله مبررا سلوكه بمعايير هي أبعد ما تكون عن الموضوعية والمنطق.

ثنائية في السلوك وثنائية في التعامل مع القيم :

إن هذه الثنائية في السلوك، ثنائية الظاهر والباطن، تصبح مع الممارسة سمة رئيسية في الشخصية تنعكس على المواقف التي يواجهها الفرد، سواء على مستوى فهمه لذاته أو على مستوى تعامله مع الآخرين. وتستند هذه الثنائية إلى فهم مزدوج للقيم بصفة عامة يمكن ملاحظته في مختلف مجالات الحياة. ويحدد "**حليم بركات**" خصائص القيم التي يستند إليها الإنسان العربي في حياته، والتي تؤكد فهمه المزدوج للقيم، في مجموعة من الخصائص أبرزها : " قيم قدرية لاقيم الخلق، قيم سلفية مغلقة،

مكتبة الفكر الجديد

قيم فورية لامنهجية، قيم تفضل المكاسب الآنية على المكاسب البعيدة المدى، قيم مطلقة أكثر منها نسبية، قيم عائلية لا وطنية، قيم ذاتية خاصة لا عامة موضوعية، قيم عمودية لا أفقية، قيم تشجع استيراد المقتبسات المعلبة الفكرية خلال احتكاكنا بالحضارة الحديثة. . . "[5]

وإذا كنا نتفق مع " السيد ياسين " في دعوته إلى عدم الاكتفاء بالتركيز على إبراز الجوانب السلبية في حياة الإنسان العربي، على اعتبار أن هناك الكثير من الجوانب الإيجابية التي تستحق هي أيضا الوقوف عندها والتركيز عليها (حرب أكتوبر 1973 وتضامن العرب في مواجهة التحدي الصهيوني، انتفاضة الشعب الفلسطيني في الأراضي المحتلة، المقاومة اللبنانية للاحتلال الاسرائيلي . . .إلخ)[6]، إلا أن ما لايمكن إنكاره هو أن هذه الثنائية أو الازدواجية في السلوك وفي التعامل مع القيم - على اختلافها - تشكل عائقا رئيسيا أمام تحديث المجتمعات العربية وتقدمها.

المساومة و "الخصي الفكري":

وإذا كانت عملية المساومة تتم عادة دون أن يعيها الفرد على أنها كذلك فإنها تتم على مستوى المثقفين بكيفية تكتسي طابعا واعيا وحادا أحيانا. والمثقف ليس بالضرورة المتعلم، إذ يوجد فرق أساسي بين ما نقصده بكلمة مثقف وكلمة متعلم. فالمثقف

---

(5) شرابي (هشام)، المرجع السابق ص 98 - 106

(6) يسين (السيد)، الشخصية العربية، النسق الرئيسي والأنساق الفرعية، ضمن كتاب : الذاتية العربية بين الوحدة والتنوع. ص 179.

مكتبة الفكر الجديد

يشترط فيه بالدرجة الأولى الوعي بالمشاكل التي يعاني منها مجتمعه، ثم أن يلعب دورا ما بحكم وعيه لمشاكل مجتمعه لدفع هذا المجتمع إلى الأمام. والمثقف في المجتمع العربي يعاني من **المساومة** أكثر من أي إنسان آخر نظرا للدور الذي يمكن أن يقوم به، ولكون المساومة تكون مصحوبة عادة بتهديد مباشر أو غير مباشر، بل قد تصل المساومة إلى درجة تفرض على المثقف أن يختار بين سلامته الفردية وسلامة أسرته وذويه وبين التشتت والنفي والغربة. وبما أن عملية المساومة يشرع فيها منذ الطفولة، عندما يطلب من الطفل أن يتخلى عن عفويته وتلقائيته ليتطابق مع نموذج محدد من السلوك، وبما أن الطفل لايعود أن يتحدى ويعتمد على ذاته ويكتسب بنفسه الخبرات، وبما أن التعليم يدعم هذا الموقف السلبي للطفل لاعتماده اعتمادا أساسيا على التلقين، فإننا لانتوقع من المثقف أن ينجح بسهولة في رفض المساومة خاصة عندما يجد نفسه مثقلا بالمسؤوليات العائلية (وبصفة خاصة المسؤولية إزاء الزوجة والأبناء، وإزاء الأبوين).

والاختيار يصبح صعبا عندما يجد المثقف نفسَه مهددا بعيشه وعيش أبنائه ومستقبله ومستقبلهم. وبما أنه ليس معدا لكي يتمرد على المجتمع أو يثور عليه، فإنه غالبا ما يقبل المساومة بحجة أنه يساير في سبيل الوفاء بالتزاماته إزاء نفسه وإزاء أسرته وأقاربه، أو قد يتمرد ولكن في القول لا بالفعل فيتمسك بالشعارات التي تدعو إلى التغيير. إلا أنه في نفس الوقت ينتفع كغيره - وربما أكثر من غيره - من نفس الواقع الذي يدعو لفظيا إلى تغييره. وقد يلجأ إلى حل آخر وهو أن يهاجر إلى خارج الوطن ويقبل بنفي اختياري ويضع نفسه " خارج اللعبة " وبذلك يجد لنفسه تبريرا

مكتبة الفكر الجديد

لانسحابه[7].

ونتيجة لهذه العوامل فإن المثقف العربي اكتسب قدرة كبيرة على تبرير مواقفه بحيث تبدو هذه المواقف منطقية في نظره وفي نظر الآخرين الشيء الذي لايشعره بتأنيب الضمير ولا يعرضه للنقد من طرف الآخرين. ونزعة التبرير نراها لدى فئات مختلفة من المثقفين ابتداء من الذين يجعلون من أنفسهم أبواقا للسلطة إلى الذين يرددون الشعارات الثورية ولكنهم من الواقع ليسوا أقل انتهازية من الفئة الأولى. ونظرا لانفصال القول عن الفعل، والظاهر عن الباطن، والفكر عن الواقع بصفة عامة، تنتشر الضبابية في التفكير والتذبذب في المواقف إذ يصبح من السهل القفز من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ما دام ذلك لن يكلف أي شيء على صعيد الواقع أو الممارسة. وهكذا ينجح المجتمع الأبوي السلطوي في الوصول إلى حالة **"الخصي الفكري"** إذ يصبح الفكر عقيما ويدور حول نفسه دون أن يتقدم أو يساعد المجتمع على التقدم.

---

(7) بركات (حليم)، النظام السياسي بين القيم الحضارية التقليدية والحديثة. في كتاب " النظام السياسي الأفضل في العالم الثالث (لبنان والدول العربية). بيروت. مكتب الفكر الجامعي. منشورات عويدات. 1971. ص 80 - 94.
يس (السيد)، الشخصية العربية النسق الرئيسي والأنساق الفرعية. ضمن كتاب " الذاتية العربية بين الوحدة والتنوع ". ص 178 - 181.
حول علاقة المثقف العربي بالسلطة. يراجع في هذا الشأن على الخصوص العدد 53 من مجلة " الفكر العربي " التي يصدرها معهد الإنماء العربي ببيروت (تشرين أول/أكتوبر 1988). العدد خصص لموضوع "المثقف، السلطة" ساهم فيه عدد من الباحثين العرب.

مكتبة الفكر الجديد

التلـــقين
كفضاء للتمويه والاستبداد

"اليد الباردة لاتكتب، القلب البارد لايحب، والإنسان البارد لاتخاف عليه أمه"

عبدالجبار السحيمي

مكتبة الفكر الجديد

إن الطابع العام الذي يميز المجتمع الأبوي العربي المعاصر هو أنه مجتمع استبدادي سلطوي. وطبيعة هذا المجتمع تفرض عليه أن يتعامل مع الطفل العربي بطريقة خاصة تجعل الطفل مهيئا لقبول إيديولوجية الاستبداد التي تهيمن على المجتمع. ويتجلى الأسلوب الاستبدادي في التعامل مع الطفل العربي بأشكال مختلفة من بينها أسلوب التلقين في التربية والتعليم سواء داخل الأسرة أو في المدرسة.[1]

التلقين داخل الأسرة :

إن الطريقة التي يعامل بها الطفل العربي في السنوات الأولى من طفولته تعتمد أسلوب التلقين الذي يقتل لديه روح الإبداع والتجديد ومواجهة الواقع والطبيعة. وتلعب الأسرة هذا الدور قبل أن ينتقل الطفل إلى المدرسة التي تفرض عليه تلقينا صارما ومنظما. فالطفل - داخل الأسرة - يطلب منه في البداية أن يردد أصواتا وكلمات ثم جملا وعبارات دون أن يكون قادرا على فهمها. وعندما يصبح قادرا على الفهم بحكم نموه العقلي، نستمر في أسلوب التلقين ونفرض عليه أن يكتفي بترديد ما يسمع وتقليد

---

(1) شرابي (هشام)، مرجع سابق.

مكتبة الفكر الجديد

ما يرى. بل إن الأمر يصل ببعض الآباء في مجتمعنا العربي، وخاصة في الوسط البورجوازي، إلى درجة أنهم يحولون دون قيام الطفل بأي مجهود لاكتساب التجارب والخبرات ويقدمون له عادة الخبرات جاهزة وما عليه إلا أن يأخذ بها دون فهم أو تمثل حقيقي، أو قد يمنعون الطفل من تكوين هذه الخبرات بحجج مختلفة. وهكذا، وقبل أن يدخل الطفل العربي إلى المدرسة، تبدأ عملية محاصرته وتدجينه، ويلعب التلقين دورا رئيسيا في ذلك.

التلقين داخل المدرسة :

أما الطابع الاستبدادي للتلقين فيتجلى على الخصوص عندما ينتقل الطفل العربي إلى المدرسة حيث يكتسي التلقين صبغة صارمة وتقوم به، بكيفية منظمة، مؤسسة اجتماعية هي المدرسة. والمدرسة في مجتمعنا العربي، تلجأ إلى تلقين الطفل مجموعة من المعلومات الجامدة والمجردة، وفي جو من الخوف والتهديد. وما على الطفل إلا أن يحفظها ويرددها وإلا تعرض للعقاب بأشكاله المختلفة بما في ذلك العقاب الجسدي، بل قد يعاقب الطفل بمزيد من الحفظ الشيء الذي يبرز الطابع العقابي للحفظ. ولايراعى في التلقين الفهم وحرية النقاش أو أن تكون المعلومات التي تلقن مرتبطة باهتمامات الطفل وواقعه بحيث تساعده على مواجهة هذا الواقع والتكيف معه. وكأن التعليم في مجتمعنا العربي يرمي إلى تكوين ذهنية مقوماتها الأساسية الامتثال والخضوع والطاعة والتقبل السلبي والاستسلام والميل للعدوان. وتعتبر هذه الذهنية استمرارا للذهنية التي شرعت الأسرة في تكوينها قبل أن يدخل التلميذ إلى المدرسة.

والتلميذ المجتهد ليس هو التلميذ الذي يناقش معلميه ويطرح

مكتبة الفكر الجديد

عليهم الأسئلة ويستفسر عما لايفهمه أو لايعرفه. . . وإنما هو التلميذ المطيع الذي يردد الأجوبة الجاهزة ولايحاول الاجتهاد أو الإبداع، ويمتثل لكل ما يصدر عن معلمه باعتباره المصدر الوحيد للمعرفة. **هذا التلميذ هو مواطن الغد الذي لايميل إلى " الشغب " وإلى " إزعاج " السلطة، إنه نموذج " المواطن الصالح " الذي تريده السلطة.** (2)

والتلقين يقترب من العنف، بل إنه نوع من أنواع العنف الذي يمارسه مجتمعنا العربي على الطفل. إن الطفل العربي، وهو يتعلم بطريقة التلقين، لايبذل مجهودا عقليا لفهم المادة التي يتلقنها وللتأثر بها من الناحية العملية، وإنما يتركز جهده على عملية الحفظ ذاتها التي تصبح عملية مرهقة ومملة. ويلاحق التلقين الطفل حتى خارج المدرسة حيث يطلب منه أن يحفظ ليلا أو أيام عطلته ليعود إلى المدرسة ويجتر ما حفظ. وبذلك يحرم الطفل حتى من إمكانية ممارسة أي نشاط يساعد على تفتح شخصيته ونموها نموا متوازنا. وهكذا تكون المدرسة الحديثة استمرارا للمدرسة القديمة لأنها لاتزال تعتبر " التربية " كما لو كانت عقابا. وعندما تفرض المدرسة على الطفل أن يحفظ حتى في منزله ليلا أو أيام العطلة يبدو **التحالف جليا بين الأسرة والمدرسة** على اعتبار أنهما مستويان متداخلان لإيديولوجية الاستبداد التي تهيمن على المجتمع العربي. وهكذا يصبح المعلم، في نظر الطفل العربي، رمزا للعنف والعقاب، وتصبح المدرسة بمثابة السجن، الأمر الذي ينعكس سلبا

(2) زكريا (فؤاد) خطاب إلى العقل العربي. دار مصر للطباعة. القاهرة 1990. ص 74.

مكتبة الفكر الجديد

على شخصيته ونموه النفسي والمعرفي[3].

إن التلقين، بالشكل الذي نمارسه في مجتمعنا العربي المعاصر، يصبح وكأنه هو الغاية من التعليم، لأن الطفل أو التلميذ يبذل كل جهده في حفظ ما تلقنه من معلومات. ولاتهتم المدرسة في إيجاد علاقة بين ما يلقن للتلميذ وبين الواقع الذي يعيشه بحيث تصبح المعلومات التي يتلقنها معلومات مجردة لاتؤثر في واقعه ولاتساعده كي يواجه هذا الواقع مواجهة علمية وإيجابية. وهذا التباعد بين ما يلقن للتلميذ وبين الواقع الذي يعيشه يؤدي، على المدى البعيد، الى انفصال بين مستوى الفكر ومستوى العمل. وتبدو هذه الظاهرة جلية حيث نلاحظ انفصالا بين تفكير الإنسان العربي المعاصر وممارسته العملية. ويتخذ هذا الانفصال مظهرا آخر عندما تبتعد الإيديولوجيات التي يأخذ بها الإنسان العربي عن واقعه المعاش فتظل كنوع من الحلم الذي يدغدغ مشاعره دون أن تغير من واقعه شيئا.[4]

التلقين كوسيلة للتدجين :

والتلقين، كوسيلة تستخدمها إيديولوجية الاستبداد، يصبح مع الممارسة الطويلة جزءا من تركيبه الذهنية التي أنتجها مجتمع الاستبداد. وهذا ما نلاحظه في مجتمعنا العربي الأبوي المعاصر حيث تتكرر، على مستويات متعددة وبأشكال مختلفة، صورة

(3) بوبكري (محمد)، النظام الأبوي والتربية في المجتمع العربي. صحيفة الاتحاد الاشتراكي المغربية. 28 يناير 1994. ص7.

(4) نصار (كريستين)، مواقف الأسرة العربية من اضطراب الطفل. جروس برس طرابلس. لبنان 1993. ص125.

مكتبة الفكر الجديد

المعلم الذي يلقّن والتلميذ الذي يلقّن. وهكذا إما أن تكون ملقنا تقوم بعملية التلقين، وإما أن تكون متقبلا للتلقين أو بعبارة أخرى إما أن تكون مستبدا يمارس الاستبداد وإما أن يمارس عليك الاستبداد. وتصبح العلاقات بين الأفراد تتخذ شكلا **"عمودياً"** لا شكلا أفقيا يقوم على أساس المساواة والحرية. ونتيجة لهذه العلاقات العمودية يتعلم الإنسان العربي منذ الصغر أساليب من التفكير والسلوك تعتمد على **النفاق والنميمة والمسايرة والتزلف والتلفيق**... إلخ. إلى غير ذلك من أساليب الفكر والعمل التي تنسجم مع التقسيم العمودي أو الطبقي للمجتمع.

وبذلك تصبح **"السلطوية"** بوجهيها (السيطرة والخضوع) هي النمط العام المسيطر داخل المجتمع الأبوي على مستوى الفكر أو الممارسة، وتشمل مختلف الشرائح الاجتماعية : " من أعلى قمة الهرم الاجتماعي إلى أدناه، من الحاكم الأول إلى مرؤوسيه، ومن هؤلاء إلى مرؤوسيهم، ومنهم إلى غالبية السكان. وبين هؤلاء من الأقوى إلى الأضعف، ومن الرجل إلى المرأة، ومن الكبار إلى الصغار، ومن الإخوة الأكبر سنا إلى الذين يلونهم. وأما قمة الهرم فهي تخضع لنمط مقنع من السيطرة يفرض من خارج الحدود". [5]

إن من بين النتائج الخطيرة المترتبة على التلقين بالشكل الذي يتم في المجتمع العربي، هي أن الإنسان العربي أصبح قابلا للانصياع والاقتناع بسهولة، ضعيف الثقة بنفسه وبإمكانية تغيير

---

(5) نعيم (سمير)، التكوين الاقتصادي والاجتماعي وأنماط الشخصية في الوطن العربي. مجلة العلوم الاجتماعية. الكويت عدد 4 مجلد 11. ديسمبر 1983. ص 84 وما بعدها.

مكتبة الفكر الجديد

واقعه، قليل التحدي والمواجهة. وإن حدث ذلك فبكيفية انفعالية مرتجلة ومؤقتة. وربما كانت هذه النتيجة هي التي تهدف إليها إيديولوجيا الاستبداد من تدعيمها لأسلوب التلقين وفرضه سواء في الأسرة أو المدرسة أو المجتمع العام وكما يقول "**علي زيعور**": «إن الأب والعصا رمزان للتعلم بالإكراه، أي عن طريق الذاكرة لابتعزيز النقاش والحوار "[6]. فالطفل يلقن داخل الأسرة ويطلب منه أن لايناقش ما يتلقنه أو يبدي رأيه فيه حتى ولو كان فيه بعض الخطأ. وعندما يخرج ليمارس حياته داخل المجتمع يطلب منه أن لايتخلى عن موقف التلقين الذي نشأ عليه ليكون " مواطناً" يتقبل وينصاع وينكمش... ولايكون " مزعجا ".

وهكذا تنجح إيديولوجية الاستبداد في ترويض الطفل، فتحاول أن تقتل لديه ميله للتحدي وتأكيد الذات وتدعوه إلى نمط من السلوك يتسم بالطاعة والانصياع والهدوء، وبعبارة أخرى تدعوه إلى الخنوع والاتكال واللامبالاة. ويغلّف سلوك الخنوع بمجموعة من القيم كالتأدب والحشمة والرزانة...، حتى يتحول القمع من قمع خارجي إلى قمع داخلي يمارسه الطفل بنفسه طمعا في الحصول على رضى الوسط الذي يعيش فيه.

---

(6) زيعور (علي)، التحليل النفسي للذات العربية. دار الطليعة، بيروت. 1977. ص 34.

مكتبة الفكر الجديد

التمويه
وظاهرة سوء الظن

"إذا صدر عن إنسان قول يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الإيمان من وجه واحد يجب حمله على الإيمان ".

"الشيخ محمد عبده"

مكتبة الفكر الجديد

يكاد يكون سوء الظن ظاهرة تعرفها مختلف الشرائح الاجتماعية في المجتمع العربي. وقد بلغت من الشيوع درجة ملفتة للنظر وتستدعي الوقوف عندها لمحاولة التعرف على أسبابها وما تخلفه من آثار على سلوك الأفراد والجماعات.

فقد أصبح مألوفا أن لايثق المرء في الكلام الذي يستمع إليه مهما اختلفت مصادره، وفي ما يراه من سلوك الآخرين أفرادا وجماعات. ويفترض أن هذا السلوك ليس إلا قناعا يخفي نوايا ورغبات مغايرة إن لم تكن مناقضة لما هو ظاهر من السلوك.

وتفسير هذه الظاهرة قد لايتم إلا في إطار النسق الأبوي السلطوي السائد في المجتمع الذي يتبنى نمطا معينا من التنشئة الاجتماعية التي تتناسب معه ولاتتعارض مع توجهاته ومراميه. إن هذا النسق يفرض على الفرد في مختلف مراحل نموه النفسي والاجتماعي والبيولوجي، نماذج من السلوك والعادات والأفكار تعزز لديه الميل للامتثال والخضوع، مما يضعف قدرته على المبادرة والابتكار، وبالتالي يدجّن في تفكيره وسلوكه ويصبح أداة طيعة قابلة للتكيف مع مختلف المواقف.

الموقف اللاعقلاني من الطبيعة :

وعلى مستوى العلاقة بالطبيعة يعوّد الطفل منذ الصغر أن ينظر

مكتبة الفكر الجديد

إلى الطبيعة نظرة تشكك وارتياب وخوف فهي مصدر تهديد دائم له، تحركها قوى غيبية لايستطيع فهمها والاطمئنان إليها. والتعامل مع الطبيعة لايكون تعاملا مباشرا وعقلانيا لأن ما يراه منها ليس - في نظره - هو الحقيقي والواقعي، إذ أنها "مسكونة" بـ "الجن والعفاريت والغول... إلخ".

وفي ظل هذا الموقف من الطبيعة والعالم الخارجي بصفة عامة لاتشجع الأسرة الطفل على الاحتكاك بالأشياء وفهمها على حقيقتها، بل تذهب إلى أبعد من ذلك وتصور له التعامل مع الأشياء بأنه لابد وأن يكون مؤذيا ومصدر تهديد بشرور متنوعة. ويُنصح الطفل في ظل هذا النمط من التنشئة الاجتماعية، أن يظل ملتصقا بأسرته وقريبا من والديه ولايغامر بالابتعاد عنهما، لأن مثل هذه المغامرة تعرضه لخطر الآخرين.

ولايخفى أن هذا الموقف من الطبيعة والعالم الخارجي عموما ليس من شأنه أن يهيء الطفل ليكون فردا يتبنى التفكير العلمي على مستوى آرائه وسلوكه. وحتى وإن بدا هذا الفرد آخذا بمظاهر العلم والتكنولوجيا على مستوى الاستهلاك، إلا أن ذلك يظل قشرة خارجية ويرمي إلى إخفاء حقيقة سلوكه، وإعطاء انطباع إيجابي لدى الآخرين يزيد من تقدير الفرد لذاته وهو تقدير لايستمده من تقييم موضوعي للذات وإنما من نظرة الآخرين له وموقفهم منه.

وأمام انحسار التفكير السببي والعقلاني في فهم الطبيعة يأتي التفكير الغيبي والخرافي كبديل للتفكير في فهم الطبيعة وتنظيم علاقة الإنسان بها. وكلما ازداد الإنسان معرفة بالطبيعة والقوانين التي تتحكم فيها كلما تخلى عن اللجوء إلى الخرافة والفكر الغيبي اللاعقلاني في محاولته لفهم أسرار الطبيعة وقوانينها. وبذلك

مكتبة الفكر الجديد

يتعامل الفرد - في هذه الحالة - مع الطبيعة تعاملا لفظيا ومن خلال أحكام جاهزة بعيدة عن التفكير السببي والعلمي. ومن شأن هذا الموقف السلبي من الطبيعة أن يحول دون تكوين الفرد لتجارب وخبرات واقعية. وإذا صادف إن وجد الفرد نفسه وحيدا في الطبيعة فإنه يشعر بالارتباك والخوف والعجز، مما لايساعده على تكوين صورة إيجابية عن ذاته، بل على العكس من ذلك **إن عجزه أمام الطبيعة يغرس في شخصيته تبخيسا لذاته وفقدان الثقة بها**.

وقد أكدت الدراسات المتعلقة بانحراف الأحداث أن نسبة هامة من الأحداث المنحرفين أو المهددين بالانحراف يعانون من شعور بتبخيس الذات وضعف الثقة بالنفس والخوف من الطبيعة ومن العالم الخارجي بصفة عامة. ويشكل هذا الشعور - بالإضافة إلى عوامل أخرى - صعوبة رئيسية أمام تأهليهم المهني وبالتالي أمام إعادة إدماجهم في المجتمع. (1)

ويكرس التعليم السائد في المجتمع العربي موقف الطفل من الطبيعة، وهو موقف يقوم على الحذر وسوء الظن والخوف والتهديد... ولايتيح للطفل الاحتكاك الفعلي بالأشياء والطبيعة بصفة عامة، وبالتالي لاتتاح للطفل فرصة حقيقية لتبني التفكير السببي والعلمي الذي يفسر الظواهر الطبيعية والقوانين التي تتحكم بها. ويظل التعامل مع الظواهر في تعليمنا **تعاملا لفظيا وسطحيا** قابلا للانهيار في أول احتكاك فعلي بالطبيعة. وإذا كان الموقف من

---

(1) حجازي (مصطفى)، الاحداث الجانحون، دراسة ميدانية نفسانية اجتماعية، دار الحقيقة. بيروت 1975. ص 12 وما بعدها.

مكتبة الفكر الجديد

الطبيعة يكتنفه الخوف والحذر والتهديد... فإن التعليم، القائم في الغالب على أساس التلقين، يتم هو الآخر في جو من التهديد والخوف والقمع. وبذلك يكرس التعليم الموقف اللاعقلاني من الطبيعة الذي غرسته التنشئة السلطوية في شخصية الطفل منذ السنوات الأولى من طفولته. وعلى مستوى السلوك فإن التعليم - في وضعه الحالي - يتحول إلى مجرد قشرة خارجية تغلف سلوك الفرد ولاتتفاعل مع ما يصدر عن الفرد من أفعال. (2)

عجز أمام الطبيعة وحذر من الآخرين :

إن موقف الطفل من الطبيعة ينسحب على موقفه من الآخرين من غير أفراد أسرته. إنهم - كالطبيعة - غرباء ومصدر خوف وتهديد. إن الطفل في المجتمع العربي يجد نفسه منذ ولادته محاطا بالأشخاص المتمثلين في والديه وإخوته وأقاربه، ويطلب منه باستمرار أن يتعامل معهم من خلال عبارات وكلمات جاهزة لايفهم معناها ويكررها لا لشيء إلا لأن تكرارها يبعث الارتياح في الأسرة ويجعله مقبولا من طرفها. وكلما تقدم الطفل في العمر كلما أتقن هذا الدور على حساب التضحية بالعفوية والصدق والبراءة... التي تتميز بها الطفولة. ويتعود الطفل أن ينافق الآخرين بتمثيله للدور الذي فرضته الأسرة عليه، والذي هو في الواقع دور أملته معايير الأسرة وعاداتها متجاهلة في ذلك حاجيات الطفل النفسية والبيولوجية. وقد يبدو الطفل في مجتمعنا " مهذبا " و " هادئا "

---

(2) خصصت صحيفة عربية ملفها الأسبوعي لظاهرة العرافات. ومن بين الشهادات التي أوردتها شهادة أستاذ للرياضيات يقيم في العاصمة ومن الزبائن الدائمين للعرافات. وفي هذه الشهادة يتحدث أستاذ الرياضيات عن "القدرات الخارقة للعرافات في معرفة الغيب وامتلاك الحكمة والبركة".

مكتبة الفكر الجديد

و"رزينا" . . . إلا أنه في الواقع لايدرك معنى التهذيب والهدوء والرزانة . . . ويضطر، لإتقان هذا الدور المفروض عليه، أن يكبت ميله للحركة ولتجريب الأشياء ومعرفة العالم الخارجي.

وإذا كانت الطبيعة تثير في نفس الطفل شعورا بالارتباك والخوف، فإن وجوده أمام الآخرين الغرباء عن أسرته يشعره أيضا بالارتباك والخجل وعدم الثقة بالنفس، لأنه لم يتعود أن يتعامل إلا مع أفراد أسرته. ولكي يخفي هذا الارتباك وعدم الثقة بالنفس والخجل تعوده الأسرة على مجموعة من العادات تكتسي في الغالب **طابعاً لفظياً**، كان يحيي الاخرين بطريقة محددة، ويرحب بهم مكررا عبارات معينة . . إلى غير ذلك من العادات التي يؤديها الطفل دون أن يعرف معناها ومغزاها الحقيقيين.

وفي الوقت الذي يطلب فيه من الطفل والفرد بصفة عامة، أن ينافق الآخرين ويتودد إليهم بحجة المراعاة والمسايرة، يطلب منه أيضا أن **يسيء الظن بهم ويكون حذرا في التعامل معهم**. وهذه الازدواجية في السلوك تتعزز بشكل ملحوظ وتؤطر بمجموعة من المفاهيم والأمثال والعادات والحكم . . . لتصبح في نظر الفرد مقبولة كما لو كانت أخلاقية ولاتثير فيه أي شعور بالتناقض أو تأنيب الضمير. فالصورة عن المجتمع التي تنقل للفرد عبر مختلف مراحل نموه الاجتماعي تعتبر المجتمع بأنه عالم الصراع والتنافس والمصالح والخداع والنفاق . . . ، الأمر الذي يتطلب من الفرد أن لايثق في ما يرى أو يسمع، وأن يكون حذرا وإلا أصابته سهام الآخرين (إن لم تكن ذئبا أكلتك الذئاب، إتق شر من أحسنت إليه . . . إلخ).

إن تملق الآخرين ومجاراتهم ليس من شأنه أن يزيل أو يخفف

مكتبة الفكر الجديد

موقف الحذر وسوء الظن بالآخرين، بل على العكس من ذلك يظل هذا الموقف قائما وربما ازداد تأججا، ويتجلى من حين لآخر بأشكال مختلفة. فاستغابة الناس والتقليل من شأنهم والسخرية والشماتة بهم وإبراز عيوبهم... كلها أساليب من السلوك تعكس الوجه الآخر لمسايرة الناس وتملقهم. وفي مثل هذا الوضع لايسمح بانتشار الصدق في التعامل وإيجاد الحلول الجذرية للمشاكل، بحيث تظل المشاكل معلقة وتظل الحلول سطحية ولفظية ومؤقتة.

إن الازدواجية في سلوك الفرد (ظاهر وباطن...) تفقد الفرد الاتزان في مواقفه وأحكامه بحيث يقفز بسهولة من الموقف إلى نقيضه، من الصداقة إلى العداء، من التأييد المبالغ فيه إلى المعارضة الشديدة، من القبول إلى الرفض... دون أن يشعر بأن هذا القفز يضطره إلى تغيير فعلي في سلوكه وأفكاره.

وأمام الازدواجية في السلوك والفكر يتعذر حدوث حوار حقيقي بين الأفراد إذ أن الحوار يفترض حرية الفكر والتعامل الأفقي مع الآخر، ويقوم على أساس الاحترام المتبادل، ويتنافى مع تشنج المواقف والتعصب. وهكذا يتحول الحوار بسرعة إلى صراخ، أي إلى موقف يلغي وجود الآخر بوصفه إنسانا له وجوده المستقل ووجهة نظره التي قد تكون مصيبة أو خاطئة. إن هذه الازدواجية تعزز سوء الظن بالآخرين، والتشكيك في أقوالهم وأفعالهم وتحول دون ممارسة النقد الذاتي أو أي نوع من النقد الموضوعي، وفي أي مجال كان. ويصبح الآخر إما موضوعا للمديح أو الثناء، أو الهجوم والسخرية والاستغابة، وأي كلام عن الآخر لابد وأن يصنف على هذا الأساس.

مكتبة الفكر الجديد

التخويف من الطبيعة يفتح المجال أمام التمويه :

يعود الطفل العربي منذ الصغر أن يتخذ موقفا متخاذلا إزاء العالم المحيط به وذلك بتخويفه بقوى غيبية تحول بينه وبين الاحتكاك الموضوعي بالعالم الخارجي الذي يصبح عالما لا معقولا ومصدر حذر وخوف. والتخويف بالشكل الذي تمارسه عادة الأسرة في المجتمع العربي يحول دون فهم الطفل للعالم الطبيعي فهما سببيا ومنطقيا، الشيء الذي يساعد على ترسيخ المفاهيم الخرافية والمواقف اللامنطقية في السلوك. فإذا ما واجهت الفرد صعوبة في الحياة لايتصدى لها بكيفية عقلانية وموضوعية وإنما يلجأ في مواجهتها للخرافة التي تشعره بالارتياح لكونها تحرره من المسؤولية بإلقائه سبب هذه الصعوبة على قوى غيبية تتجاوز قدرته وتفكيره ولايستطيع السيطرة عليها. بالإضافة إلى ذلك، إن التخويف يحول دون تفتح شخصية الطفل واستغلال ما لديها من إمكانيات بحيث لايتمكن من التعرف ليس فقط على العالم المحيط به وإنما أيضا على ذاته. وبذلك يبدأ الانفصال بين الداخل والخارج بين القول والفعل، بين الحاجات الأولية للطفل وبين الواقع الذي لايستجيب لهذه الحاجات. والانفصال يتأكد كلما تقدم الطفل في العمر حتى يصبح ازدواجا في شخصيته.

ويتم التخويف في جو مأساوي يتجلى في التهديد الذي يتعرض له الطفل وفي موقف الإذعان والاستسلام الذي يلزم باتخاذه والذي يفسر من طرف المجتمع على أنه " طاعة " وأدب "وتربية حسنة" . . . إلخ.

وهكذا، ومن خلال مختلف مراحل التنشئة الاجتماعية التي يخضع لها الإنسان العربي، يصبح الموقف من الطبيعة جزءا من

مكتبة الفكر الجديد

مقومات شخصيته، وهذا ما دفع مفكرا مثل "جاك بيرك" ليقول بأن " الشرقي (والعربي بصفة عامة) لم يطوع عالم الأشياء لإرادته، فالطبيعة حاكمة بالنسبة للغربي ولكن في إمكانه السيطرة عليها إذا تم فهمها أما بالنسبة للشرقي (العربي) فالطبيعة هي الحاكمة "[3]

إن نمط التنشئة السائد في معظم المجتمعات العربية يفرض على الطفل أن يتخذ موقف الحذر والشك إزاء الطبيعة وإزاء الآخرين. فالطبيعة تصوَّر له كما لو كانت قوة تمارس على الإنسان قمعا لامعقولا لايستطيع الإنسان إلا أن يخضع له دون أن يحاول فهمه. ويتجلى هذا الموقف من الطبيعة في كثير من الخرافات التي تلقن للطفل كما لو كانت حقائق علمية لامجال للشك فيها.

أما الآخرون فهم أيضا موضع شك وحذر. فالطفل في مجتمعنا العربي يعود أن يتجنب التعامل المتكافئ مع الآخرين من أمثاله، وأن يتخذ منهم موقفا يقوم على الحذر والشك لأنه يتوقع الأذى في كل لحظة من الآخرين. ومثل هذا الموقف لايعود الطفل اتخاذ المبادرة وتحمل المسؤولية والثقة بالنفس، بل يعوده على الاتكال واللامبالاة وعدم الثقة بالنفس.

وإيديولوجية الاستبداد بتشكيكها بالطبيعة والآخرين تجعل الطفل يعيش عزلة قاسية تسهل عملية تدجينه وترويضه لهذه

---

(3) بيرك (جاك)، على دلتا النيل، موتون، باريس 1957. ص79. ورد ذكر هذا المرجع في :
- حافظ (نجوى)، الشخصية العربية : سماتها ومقوماتها. ضمن كتاب "الذاتية العربية بين الوحدة والتنوع". الجامعة التونسية. مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية. الملتقى الأول للجامعيين التونسيين والمصريين (12 - 17 أبريل 1978) ص66

مكتبة الفكر الجديد

الإيديولوجيا بحيث لايقبل فيما بعد أن يخضع لها فقط وإنما يدافع عنها بقناعة وحماس.

قد يفهم من هذا الكلام عن موقف الإنسان العربي من الطبيعة أن الأمر يتعلق بنظرة متشائمة تنفي إمكانية استيعاب الإنسان العربي لقوانين الطبيعة والسيطرة عليها كما تنفي أن تكون شخصية الإنسان العربي قادرة على الخروج من هذا المأزق كما لو كان قدرا لايقاوم. إن ما قصدناه يتنافى مع هذه النظرة الاستسلامية المتشائمة ويدعو إلى ضرورة إعادة النظر في أساليب التنشئة الاجتماعية السائدة في عدد هام من الشرائح الاجتماعية في المجتمعات العربية. فإذا كانت شخصية الطفل تتكون وتنمو بصورة تدريجية نتيجة تفاعلها مع الآخرين، وإذا كان فهم كيفية تكوين هذه الشخصية وأساليب نموها يساعدنا على فهم أنماط السلوك السائد في المجتمع، فإننا نستنتج من ذلك أن علينا إعادة النظر في أساليب تنشئة الطفل في مجتمعاتنا العربية في ضوء ما توصلت إليه العلوم الإنسانية لاسيما علوم الاجتماع والتربية وعلم النفس... [4]

إن التخويف من الطبيعة يحول دون التعامل الصريح والمباشر معها من طرف الطفل ويصبح التعامل معها تعاملا خرافيا من خلال حكايات وأساطير تتنافى مع كل تفكير سببي ومنطقي. لذلك لانرى الطفل العربي يميل إلى مواجهة الطبيعة وفهمها وتحديها لأنه لم يتعود مثل هذه المواجهة التي - إذا ما حدثت - بعثت فيه الارتباك وأشعرته بالضعف والعجز. وحتى على مستوى الكبار فإن الفرد العربي قد يصل إلى مستوى متقدم من الثقافة النظرية المجردة إلا

(4) شرابي (هشام)، مقدمات لدراسة المجتمع العربي... ص 33-34.

مكتبة الفكر الجديد

أنه يعجز على مستوى الممارسة العملية، عن القيام بأعمال بسيطة تفرضها عليه الحياة العملية بحيث يبدو كما لو كان معطوبا من الناحية العملية رغم ثقافته النظرية الواسعة. وهكذا يشعر الفرد بأن ثقافته لاقيمة لها وتكرس انفصاله عن الواقع.

وفي الوقت الذي نبعد الطفل عن الطبيعة بتخويفه منهانؤكد على طريقة أخرى في التعامل سواء مع الطبيعة أو مع الآخرين تقوم على الكلام. فالطفل العربي يعود منذ الصغر أن يستمع إلى الحكايات الخرافية وأن يرويها ويتعود أن يجامل الآخرين، وبصفة خاصة الكبار، مستخدما عبارات فرضت عليه بطريقة تلقينية صارمة، وأن يحسن الكلام - كلام الكبار - في مرحلة مبكرة، وأن يستمع إلى الأوامر والنواهي الكلامية التي نصدرها إليه. كل ذلك يجعل الطفل العربي يعيش في **بيئة كلامية** تجعله يميل إلى الابتعاد عن الطبيعة " التي لاتتكلم " ويتجه نحو الأشخاص باعتبارهم كائنات يمكن له أن يتعامل معهم من خلال الأسلوب الذي نشأ عليه وهو أسلوب الكلام والتلقين. وبذلك يعيش الطفل في بيئة لفظية ترتبط ارتباطا واهيا بالواقع وتتلاءم مع موقف الهروب من مواجهة الطبيعة وفهمها فهما موضوعيا ومنطقيا. وهذا الموقف الانسحابي والمتخاذل إزاء الطبيعة يصبح الطابع المميز لسلوك الفرد إزاء أية صعوبة يواجهها. فعوضا من أن يواجه الصعوبة مواجهة مباشرة وبمنطق عملي وواقعي فإنه يلجأ إلى الشكوى والمجاهرة بالتحسر والندم وانتقاد الذات انتقادا قد يصل إلى درجة تحقيرها والحط منها.

وإذا كان الطفل العربي يعود على أن يتفادى مواجهة الطبيعة مواجهة مباشرة وعقلانية فإنه يعود أيضا على أن يتفادى مواجهة

مكتبة الفكر الجديد

الآخرين بكيفية مباشرة وعقلانية. ومن هنا يبدو أسلوب مسايرة الآخرين ومراعاتهم ونيل إعجابهم ورضاهم هو البديل عن المواجهة المباشرة والمنطقية. ونظرا لكون علاقة الفرد بالآخرين تهدف إلى كسب رضاهم وإعجابهم فإن الفرد لايهتم بطبيعة هذه العلاقة في حد ذاتها وإنما بردود الفعل الناجمة عنها. ويُشرع في تثبيت هذا الموقف في الطفولة حيث يتعود الطفل أن يثير انتباه الآخرين بالقيام بكل ما من شأنه أن يرضيهم كوسيلة لتأكيد ذاته حيث لايهتم بقيمة الفعل الحقيقية، وإنما برد الفعل الذي يخلفه في نفوس الآخرين.

إن الطبيعة في نظر الإنسان العربي؛ ونتيجة لنمط تنشئته الاجتماعية، ليست موضوعا للفهم أو المواجهة والتحدي وإنما موضوعا يتغنى به ويتعاطف معه. فالعلاقة بينه وبين الطبيعة **علاقة "شاعرية"** تؤدي إلى الوقوف منها موقف البدائي أو الطفل أو المريض النفسي. وفي هذا يشير " **علي زيعور** " إلى أن العربي - في أقصى درجات المعرفة - (محمد عزيز الحبابي مثلا) أو في أدنى الدرجات المعرفية (الزجال، شبه الأمي) - يفضل لقب شاعر على لقب فيلسوف... مما يعكس أو هو مرتبط بالنظرة اللاعقلانية إلى الطبيعة.[5]

وعندما يحاول الإنسان العربي التعبير بصدق عن ذاته سيجد إن التعبير يتحول إلى نوع من " المونولوغ " الحزين الذي يعبر أصدق ما يكون التعبير عن مأساته الحقيقية. والطابع المأساوي والحزين

(5) زيعور (علي)، التحليل النفسي للذات العربية. دار الطليعة. بيروت 1977. ص21.

مكتبة الفكر الجديد

إن حديثنا عن الدور الذي تلعبه الخرافة في تفكير وسلوك الإنسان العربي المعاصر ينطلق من فرضية مؤداها أن التفكير الخرافي يترسخ في ذهنية الإنسان العربي منذ الطفولة، ويزداد رسوخا في المراحل التالية من النمو عندما يمارس الفرد حياته كعضو في المجتمع العام. كما أن الإيديولوجيا الأبوية السلطوية التي هي الطابع المميز للمجتمع العربي تعمل على نشر الفكر الخرافي وتعميقه لأنه يلعب دورا هاما في تدعيمها واستمرارها. وهكذا يصبح للخرافة وظيفة تحددها الإيديولوجيا الاستبدادية.

الأم تغرس في ذهن الطفل التفكير الخرافي :

إن الطفل في المجتمع العربي يرتبط ارتباطا قويا بأمه وخاصة في المراحل الأولى من طفولته، لذا تلعب الأم دورا رئيسيا في تكوين شخصية الطفل. وبما أن المرأة في المجتمع العربي تعتبر من الشرائح الاجتماعية الأكثر تعرضا للاستبداد الاجتماعي، بحكم تبعيتها للرجل والنظرة الدونية لها، فهي أكثر ميلا للخرافة، التي ترى فيها وسيلة تحاول بها التخفيف من وطأة المستقبل الذي يتهددها ويثير مخاوفها. فهي تشعر دائما أنها مهددة وتحت رحمة الرجل وأن عليها أن تحافظ على ارتباط زوجها بها بكل الوسائل : لأن الزوج هو الذي يحميها ويعيلها ويمنحها قيمتها الاجتماعية.

مكتبة الفكر الجديد

وعملية التجهيل المفروضة على المرأة العربية تهدف - على المدى البعيد - إلى تمثلها لإيديولوجية الاستبداد كي تقوم بإسقاطها على أبنائها من خلال تعاملها معهم فينشأون وقد " روضوا " ترويضا يؤهلهم لتقبل هذه الإيديولوجيا كما لو كانوا هم الذين اختاروها عن قناعة ورضى. ونظرا لجهل المرأة العربية والتهديد المستمر الذي يساورها فإنها تجد نفسها مضطرة للجوء لأساليب الشعوذة والخرافة كي تؤكد ذاتها وتحتفظ بعلاقتها بزوجها.[1] وعلى سبيل المثال فقد تبن من دراسة ميدانية أجريت بمصر حول " السحر والمجتمع " أن نسبة كبيرة من نساء عينة البحث يترددن على المشتغلين بالسحر والشعوذة. وتخلص الدراسة إلى أن المرأة المصرية، وبصفة خاصة غير المتعلمة، " لاتحس أمانا في زواجها ولا في حياتها بعامة، وإن هذا يلجئها إلى المشتغلين بالسحر "[2].

والأم، في المجتمع العربي، لاتكتفي بممارسة عادات وتقاليد تعتمد على الخرافة وإنما تغرس التفكير الخرافي - ودون وعي منها - في ذهن طفلها. ويتجلى ذلك في تخويفها للطفل من قوى غيبية لايمكنه فهمها فهما منطقيا كالغول والجن والشيطان... وفي إجابتها على أسئلته بطريقة خرافية وغير معقولة، وفي عقابها له عقابا جسديا ونفسيا عنيفا كما لو كانت تحيل أمر عقابه والانتقام منه إلى قوة غيبية تستجيب لدعائها... إلخ. بالإضافة إلى ذلك فإنها لاتعوده ربط الأسباب بالنتائج ربطا ضروريا، ومواجهة

(1) حجازي (مصطفى)، التخلف الاجتماعي، مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور. ص 80-83.

(2) الساعاتي (سامية حسن)، السحر والمجتمع. دراسة نظرية وبحث ميداني. دار النهضة العربية. القاهرة. 1983. ص 228.

مكتبة الفكر الجديد

المواقف التي تعترضه مواجهة صريحة مباشرة تعتمد على أساس التفكير المنطقي السببي.[3]

المدرسة غير قادرة على إزالة رواسب التفكير الخرافي :

يجمع المتتبعون لوضعية التعليم في العالم العربي على أن المدرسة العربية لاتزال بعيدة عن الواقع الذي يعيشه التلميذ لأنها تتبنى - في الغالب - أسلوب التلقين دون أن تنمي لدى التلميذ روح النقد والمحاكمة العقلية. وتكتفي المدرسة بأن تحشو ذهن الطفل بمجموعة من المعلومات التي، وإن كانت تتناقض مع التفكير الخرافي، إلا أنها لاتزيل رواسب هذا التفكير الذي ترسخ في مرحلة الطفولة السابقة. لهذا قلما تساهم المدرسة في تغيير الممارسات اللاعقلية السائدة في المجتمع، مما جعل أحد الباحثين العرب في شؤون التربية يصف المدرسة في المجتمع العربي بأنها "**حمال الوعي الزائف**... **وحمال ثقافة التخلف**"[4]. والذي يمارس مهنة التدريس يلمس هذه الحقيقة بكيفية واضحة. فقد يدرس الطالب العلوم التجريبية والرياضيات ومناهج العلوم والفلسفة، إلا أنه في نفس الوقت يؤمن بالخرافة إيمانا راسخا دون أن يشعر بأن الخرافة تتناقض مع كل أنواع التفكير التي يدرسها. بل قد نجد الكثيرين ممن قدر لهم أن يمارسوا مهنة

---

(3) اسماعيل علي (سعيد)، فلسفات تربوية. عالم المعرفة. الكويت. 1995 - ص202-203.

(4) الإبراهيم (حسن)، التنمية والتعليم وجها لوجه. ذات السلاسل. الكويت. 1989. ورد ذكر هذا المرجع في :
- سارة (ناثر)، التحصيل التعليمي بين الأسرة والمدرسة. مجلة الفكر العربي. معهد الإنماء العربي. العدد 83. شتاء 1996. بيروت.

مكتبة الفكر الجديد

التدريس يؤمنون بالخرافة، وبالتالي لاننتظر من هؤلاء أن يعملوا على ترسيخ التفكير المنطقي والعقلي في أذهان طلابهم. ونظرا للأسلوب التلقيني في التعليم، ولاعتماد التعليم على التهديد والإرهاب وابتعاده عن الواقع، فإن الخرافة تظل راسخة في ذهن الطفل، بل قد يستعمل التعليم لتبرير الخرافة وإظهارها بمظهر القوة بينما يبدو العلم محدود الفعالية إن لم يكن عاجزا في عدد من الحالات. ونتيجة لذلك يتعود التلميذ أن يستعمل العقل في الجوانب التي لاتتعارض مع المعتقدات الخرافية التي لايشك في صحتها. بل قد يصل به الأمر إلى درجة التشكيك بالعلم إذا ما لاحظ أن العلم يتناقض مع معتقداته الخرافية[5].

تعليمنا نخبوي يكرس التفكير الخرافي :

إن المعرفة كانت عبر التاريخ العربي مرتبطة بالطبقة الآرستقراطية المسيطرة، أما الغالبية العظمى التي تشكل عامة الناس فكانت غارقة في حالة من الجهل والفقر وغير قادرة - بحكم وضعيتها - على تتبع الحركة الفكرية التي كانت تدور في قصور الخلفاء والأمراء والولاة. ونظرا لارتباط الحركة الفكرية والأدبية بالطبقة الأرستقراطية المسيطرة فقد فرض على هذه الحركة أن تعالج موضوعات معينة تكتسي في الغالب طابعا مجردا وبعيدة عن الواقع الذي تعيشه الأغلبية من أفراد المجتمع. وكان المفكرون والأدباء والشعراء يتجهون إلى قصور الخلفاء والأمراء والولاة طمعا في ما يمكن أن يغدقه هؤلاء عليهم. ولو استعرضنا حياة أبرز

---

(5) نصار (كريستين)، مواقف الأسرة العربية من اضطراب الطفل. جروس برس. طرابلس. لبنان. 1993. ص122 - 130.

مكتبة الفكر الجديد

المفكرين العرب في الماضي لوجدنا أنهم كانوا - في معظم الحالات - على علاقة وثيقة بالطبقة الأرستقراطية الحاكمة. بل إن عددا منهم شارك في الحكم مشاركة فعلية. **فالكندي** الملقب بفيلسوف العرب كانت له منزلة كبيرة عند المأمون والمعتصم، بينما كان **الفارابي** على علاقة وثيقة بسيف الدولة الذي ضمه لعلماء بلاطه، في حين عين **ابن سينا** وزيرا من طرف أمير همدان وكان على صلة قوية بأمير أصفهان. كذلك الشأن بالنسبة **لابن باجة وابن طفيل وابن رشد** وغيرهم من مفكري العرب القدامى.

وإذا كان التعليم في الماضي محصورا في "نخبة" من الأفراد فإنه في المرحلة الراهنة التي يمر بها العالم العربي لايزال نخبويا في معظم الحالات، حيث أن نسبة قليلة هي التي يتاح لها أن تتعلم، أما الغالبية العظمى فتغرق في حالة من الجهل والفقر. والإحصائيات المتوفرة والمتعلقة بوضعية التعليم في العالم العربي - رغم قصورها - تؤكد هذه الحقيقة بكيفية واضحة. ونخبوية التعليم تكرس حالة التخلف الاجتماعي والثقافي والاقتصادي التي تعيشها غالبية السكان في العالم العربي. وبما أن هذه الغالبية غير قادرة على حل مشاكلها المعيشية بالنظر لتخلفها، وبما أنها أكثر الفئات معاناة للقمع والحرمان اللذين تفرضهما إيديولوجية الاستبداد، فهي ميالة إلى **الخرافة كوسيلة تعويضية** تغرقها في عالم الأوهام تبحث فيه عن معجزة للخلاص الشيء الذي يزيد في استلابها وغربتها عن واقعها الحقيقي. وإذا كانت الشرائح العليا من المجتمع تلجأ إلى التفكير الخرافي أحيانا فلكي تواجه بواسطته المواقف التي لاتنفع فيها سلطتها والإمكانيات المادية التي تتوفر عليها.

مكتبة الفكر الجديد

الخرافة تحاصر العلم وتغذي الاستبداد :

إذا كانت الغالبية من السكان في العالم العربي تعيش الخرافة ممارسة وفكرا لتخلفها وجهلها فما هو الموقف الذي تتخذه من الخرافة تلك الفئة التي حظيت بنصيب من التعليم؟

إن وضعية التخلف تشكل ضغطا على المتعلم لايمكن تجاهله نظرا للعلاقة الجدلية بين الفرد والمجتمع، إذ يصعب على المتعلم في العالم العربي أن يرفض رفضا تاما العادات والتقاليد السائدة في بيئته الاجتماعية، وما يؤطرها من مفاهيم وأفكار، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار أن التعليم يظل سطحيا ولايغير من البنية الأساسية للذهنية العربية التي تكونت في الطفولة والتي تشكل الخرافة إحدى مقوماتها الرئيسية. بالإضافة إلى ذلك يتعرض المتعلم في العالم العربي لضغوط سياسية واقتصادية تتخذ أشكالا متنوعة وتلجأ إلى الإغراء والتهديد حتى تنجح في جعل المتعلم يتنازل عن حريته وعفويته وبذلك يصبح أداة طيعة في يد الطبقة المسيطرة. ومع الزمن تنجح هذه الطبقة في ترويض المتعلم وفي إبعاده عن التفكير العلمي والسلوك المنطقي، بحيث يصبح قادرا على مسايرة إيديولوجية الطبقة المسيطرة وعدم معارضتها وربما تدعيمها والعمل على ترسيخها. وبذلك يحاصر المتعلم من طرف الخرافة كأسلوب في التفكير وكممارسة في الوقع حتى يعود لينطلق، في تفكيره وسلوكه، من الذهنية الخرافية التي نشأ عليها في الطفولة.

إذا كان المتعلم في العالم العربي يعاني مثل هذا الضغط فإن الغالبية العظمى تعاني ضغطا أكثر قسوة بحكم فقرها وجهلها مما يجعلها مرتعا ملائما للتفكير الخرافي والأسطوري. وعندما نستعرض التاريخ العربي يتبين لنا أن الإنسان العربي لم يتح له في

مكتبة الفكر الجديد

أي مرحلة من مراحل تاريخه أن يتحكم في مصيره ومستقبله وأن يمارس التفكير بحرية ودون أي ضغط خارجي، وأن يعيش حياته دون أن يكون معرضا لأي تهديد. وهذه الوضعية جعلت الإنسان العربي يبدي خوفا شديدا من المستقبل، وفي نفس الوقت يشعر بعدم ثقته بالتفكير السببي المنطقي، الشيء الذي جعل التفكير الخرافي ملاذا يعكس علاقته الواهية بالواقع. ولم تكتف الإيديولوجية الاستبدادية بأن هيأت الظروف الموضوعية لانتشار التفكير الخرافي بل إنها في بعض الأحيان تقوم بنفسها بنشر هذا النوع من التفكير، لأنها تدرك بآن هناك قاسما مشتركا بينها وبين الخرافة وهو رفض التفكير المنطقي والسببي، وبأن انتشار أساليب الخرافة يدعم وجودها واستمرارها، وإلا كيف نفسر انتشار الخرافة والشعوذة في المجتمع العربي وخاصة لدى الطبقات الدنيا في الوقت الذي ندعي فيه أننا نحاول بكل الوسائل الخروج من التخلف بجميع أشكاله؟ فلماذا مثلا لاتشعر الرقابة، التي لايخلو منها بلد عربي، بأن عليها منع تداول كتب السحر والخرافة والشعوذه، بينما لديها حساسية مفرطة إزاء الكتب التي تتناول بكيفية صريحة ومباشرة واقع المجتمع العربي المعاصر؟

إن استمرار الإيمان بالخرافة في العالم العربي بالشكل الذي عليه الآن، رغم انتشار التعليم ووسائل التكنولوجيا الحديثة، يؤكد بأن التعليم لايكفي وحده للقضاء على التفكير الخرافي والأسطوري. إذ **لا بد من تغيير الواقع الاقتصادي والاجتماعي والثقافي** للإنسان العربي كشرط أساسي لتغيير أفكاره وأسلوبه في الحياة بصفة عامة؛ فإذا اعتبرنا التفكير الخرافي نتيجة لطبيعة العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي عاشها الإنسان

مكتبة الفكر الجديد

العربي، وما زال يعيشها في الحاضر، فإننا نخرج بنتيجة مؤداها أن الإنسان العربي لايمكن له أن يتخلص من الخرافة - على مستوى الفكر أو الواقع - إلا بتغيير الواقع الاقتصادي والاجتماعي والفكري الذي يعيشه تغييرا يستند إلى العلم، على أن يظل الإنسان العربي هو الغاية من كل تغيير دون أن يضحى به لأي سبب من الأسباب. وإذا ما تم هذا التغيير فسنرى الإنسان العربي وقد تخلى عن أسلوب "**الفروسية**" في التفكير والسلوك، وعن توقع المعجزات التي ينتظر منها أن تغير واقعه رأسا على عقب...، وإنما سيواجه واقعه مواجهة موضوعية مسلحة بالعلم والوعي.

مكتبة الفكر الجديد

التمويه
وازدواجية الحسد والمجاملة

الحقيقة، مهما كانت، لايمكن أن تكون إلا كشفا لأوهام وتصحيحا لأخطاء.

عبدالسلام بنعبدالعالي

مكتبة الفكر الجديد

كثيرا ما نشكو من أن بعض الناس، الذين تربطنا بهم علاقة أو أن علاقتنا بهم غير حميمة وظرفية، لايتورعون من استغابتنا ووصفنا بصفات سلبية. وإذا ما أتيح لنا - في مناسبة ما - الالتقاء بهؤلاء الناس فإنهم يظهرون لنا البشاشة والود والكرم والرغبة في المساعدة. بل يذهب البعض بعيدا في هذا السلوك فيبادر - وبكيفية مجانية - إلى عرقلة نجاحنا حتى ولو كان هذا النجاح لايمسهم لا من قريب أو بعيد. كيف نفسر هذه الازدواجية في السلوك : نزعة عدوانية واضحة إزاء الآخرين، تقابلها نزعة تدفعنا إلى مسايرتهم وإبداء تعاطفنا معهم ومشاركتنا لهم في همومهم ومشاغلهم؟

دور الأسرة في ترسيخ الازدواجية :

إن تفسير هذه الظاهرة قد لايكون إلا بتحليل نمط التنشئة الاجتماعية الذي نشأ الطفل في ظله داخل الأسرة، على أساس أن هناك علاقة وثيقة بين ما نراه من ظواهر على مستوى المجتمع العام وبين نمط التنشئة التي يتلقاها داخل الأسرة. ورغم تباين وجهات نظر علماء النفس والتربية والاجتماع... إلا أنهم يجمعون على وجود هذه العلاقة وعلى أنها بمثابة المفتاح الذي يساعدنا على فهم كثير من الظواهر الاجتماعية. وفي اعتقادنا إن الازدواجية في

مكتبة الفكر الجديد

السلوك، والشائعة في مجتمعاتنا العربية بشكل واضح، تجد تفسيرها في الأسرة التي غرست هذه الازدواجية في شخصية الطفل لتصبح سمة من سماتها البارزة.

إن الطفل في بيئتنا العربية يعود منذ الصغر أن يتعامل مع الأشخاص لا مع الطبيعة أو الأشياء فيطلب منه - في مرحلة مبكرة - أن يتقن الكلام وأن يجيد ترديد عبارات معينة بقصد إحداث الارتياح لدى الآخرين بدون أن يفهم مضمون هذه العبارات أو يدرك معانيها الحقيقية. [1] فالعبارة لا معنى لها في حد ذاتها وإنما تستمد معناها من رد فعل الآخرين إزاءها. والطفل لايطالب بفهمها وإنما باستخدامها في المواقف الملائمة خلال تعامله مع الآخرين. وهكذا يطلب من الطفل تبني أنماط شكلية من السلوك على حساب التضحية بالفهم والتفسير السببي العقلاني.

ويتعزز هذا السلوك تدريجيا إلى أن يتقن الطفل أسلوب مسايرة الآخرين والظهور أمامهم بالمظهر الذي يرتاحون إليه، بغض النظر عما إذا كان هذا المظهر مقبولا منطقيا أم لا، إذ المهم أن يكون حكم الآخرين عليه إيجابيا. إن الطفل "المهذب" في مجتمعنا هو الطفل الذي لا" يزعج " الآخرين ويتودد إليهم، فهو لايردد إلا الكلمات والعبارات التي حفظها دون أن يتفاعل معها والتي تبعث الارتياح عند الآخرين وتجعله محببا لديهم.

وهكذا يتعود الطفل أنه لكي يكون مقبولا من طرف الآخرين ومرغوبا فيه عليه أن يتقن التملق إليهم وأن **يتخلى عن تلقائيته وميله**

---

(1) زيعور (علي) التحليل النفسي للذات العربية. دار الطليعة. بيروت. 1977. ص 34

مكتبة الفكر الجديد

الطبيعي للصدق والعفوية وعدم المراوغة، وأن يكبت مشاعره الحقيقية، ويبدي ما يختلف عنها بل وحتى ما يتعارض معها. وبذلك تتحول "الأخلاق" في نظر الطفل، وفي نظر الراشد في وقت لاحق، إلى نوع من المجاملة والمسايرة الشكليتين، وتقوم على أساس أن للسلوك ظاهرا وباطنا، وأن الظاهر لايجب بالضرورة أن يكون معبرا عن الباطن. أما السلوك في حد ذاته فلايكتسب صفته "الأخلاقية" إلا من خلال حكم الآخرين عليه، أي الجانب الظاهري منه، بغض النظر عما إذا كان القصد من ورائه أخلاقيا أو غير أخلاقي. وفي هذا الصدد يقول **"علي زيعور"**: **"إن الطفل يحمل منذ صغره الكثير من الأقنعة، والقيام بأدوار لاتتوافق مع عمره، وهذا ما يدفعه للالتواء والطاعة لا للتصدي ولا للحرية في المواجهة"**.

وهذه الظاهرة تبدو بشكل واضح عندما يجد الطفل نفسه مطالبا بأن يظهر الحب والمودة إزاء أشخاص يشعر نحوهم بالكره والعداء أو بعدم الارتياح، وأن يكتم هذا الشعور ولايبدي أية إشارة تعبر عنه. ويصبح موقف **"التآمر"** الذي يقوم على أساس أن يظهر المرء عكس ما يبطن، هو الوجه الآخر للمجاملة والمسايرة، بحيث كلما قلت الحاجة إلى المجاملة والمسايرة ظهر موقف التآمر على شكل نزعة عدائية إزاء الآخرين تتجلى بأشكال مختلفة كاستغابتهم، وعدم الارتياح لأي نجاح يحققونه، وتعمد الإساءة إليهم بدون مبرر.

والأسرة في تعاملها مع الطفل تنظر إلى ازدواجية السلوك (جانب ظاهري علني ونية مكتومة) باعتبارها أمرا عاديا بل إنها تشجع في بعض المواقف على تكريس هذه الازدواجية وغرسها في

مكتبة الفكر الجديد

شخصيته. فأحيانا يطلب الوالدان من الطفل أن يكذب ويخفي الحقيقة عن الآخرين، ويعتبران ذلك مباحا ما دام يخدم مصلحتهما أو مصلحة الأسرة. ويلاحظ الطفل في بعض الأحيان هذه الازدواجية في سلوك والديه اللذين يتصرفان أمام الغرباء عن الأسرة تصرفا يغلب عليه التكلف والتملق والمجاملة... وعند غيابهم (أي الغرباء) يصبحون عرضة لكل أشكال النقد والتجريح.

والخطير في هذه الازدواجية (المجاملة والمسايرة في مقابل التآمر والعداء) إنها تصبح، من خلال عملية التنشئة الاجتماعية ليس مجرد سلوك وإنما أيضا **طريقة في التفكير** وأسلوبا في مواجهة الصعوبات التي تعترض الفرد في حياته وفي تعامله مع الآخرين. وتعتبر المساومة والميل إلى تبني أنصاف الحلول تجسيدا لهذه الازدواجية التي تتيح للفرد أن يجد التبريرات المناسبة لسلوكه مهما خرج هذا السلوك عن المعايير الأخلاقية والاجتماعية.

وبالنظر لكون الجو العام الذي يسود الأسرة غالبا ما يكون جوا تغلب عليه السيطرة وانعدام الحوار والصراحة... فإن ازدواجية السلوك تصبح وسيلة يستخدمها أفراد الأسرة، لاسيما الأبناء، للتكيف مع هذا الجو العام وتفادي ما يترتب عنه من سلبيات.

وقد يعمد الآباء في تعاملهم مع أبنائهم، وبدون وعي منهم، إلى تعميق الازدواجية في سلوك الأبناء. فغالبا ما نرى بعض الآباء يميزون بين الأبناء، فيطلب من الأكبر سنا أن يتنازل - ولو بدون حق - لمن هو أصغر سنا، أو يطلب من الذكر أن يتنازل لأخته، أو يقربون الابن الناجح في دراسته ويهملون باقي إخوته، أو يقارنون - على مسمع الأبناء - بين الابن الناجح والابن الأقل نجاحا... إلى غير ذلك من الممارسات التي تؤدي إلى ظهور

مكتبة الفكر الجديد

الغيرة والحسد بين الأبناء. وقد يتطور هذا الشعور إلى درجة العداء الذي ينفجر أحيانا على شكل نزاعات بين الأبناء تكتسي طابع العنف والقسوة. وفي الوقت الذي ينمي فيه الآباء شعور الغيرة والحسد بين الأبناء فإنهم يطلبون من الأبناء أن يتعاونوا وأن يظهر كل منهم الحب والمودة لأخوته... مما يجعل الابن يكتم ما يشعر به من حسد وغيرة نحو أخيه ويبدي إزاءه ما يناقض هذا الشعور.

وهذه الازدواجية في السلوك لاتظل محصورة في إطار العلاقات الأسرية وإنما تتعدى هذا الإطار لتشمل علاقات الأفراد فيما بينهم، لأن أسلوب التنشئة القائم على أساس الازدواجية يحيلها إلى سمة من سمات شخصية الفرد. وهكذا يصبح الآخر مدعاة للحسد والغيرة، إذ أن نجاحه يربكنا ويثير فيما شعورا بعدم الارتياح وميلا للتقليل من قيمة هذا النجاح والانتقاص منه. وتذكرني هنا واقعة عاينتها أخيرا حيث راح أحد " المثقفين " يكيل نقدا جارحا لأحد الكتاب المعروفين، ومن محاورته تبين أنه لايعرف حتى عناوين معظم إنتاجات هذا الكاتب الذي أكال له من التجريح الشيء الكثير. .

ازدواجية المسايرة والعداء تفسد العلاقات الإنسانية وتعزز سلوك الريبة والحسد :

ليس من باب الصدفة أن أمثالنا الشعبية، والحكم المتداولة بين أفراد مجتمعاتنا، غالبا ما تبرز الازدواجية في السلوك والتي تتجلى بشكل واضح في الميل إلى مجاملة الآخرين ومسايرتهم في نفس الوقت الذي نكن لهم شعورا بالحسد والريبة بل وحتى العداء. وفي مواقف عديدة كثيرا ما نردد أبياتا شعرية، أو بعض مقاطع

مكتبة الفكر الجديد

منها، أو أقوالا شائعة أصبحت مضرب الأمثال والحكم، تتحدث عن " ظلم ذوى القربى "، و " الحذر من الأصدقاء "، "ومراعاة البارعين في الكلام"، و " حسد الحساد "، و " دناءة الوشاة " . . . إلخ. ونورد بالمناسبة نماذج من أبيات شعرية شائعة تعكس هذه الازدواجية، وأصبحت شائعة تردد من حين لآخر كما لو كانت حقائق لايتطرق إليها الشك. من هذه الأبيات المشهورة :

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة
على المرء من وقع الحسام المهند
(يعطيك ما فوق المنى بلسانه
ويروغ منك كما يروغ الثعلب)
ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى
عدوا له ما من صداقته بد
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت
له عن عدو في ثياب صديق
إذا رأيت نيوب الليث بارزة
فلاتظنن أن الليث يبتسم
لو قيل لي خذ أمانا من أعظم الحدثان
لما أخذت أمانا إلا من الإخوان [2]

وهكذا تبدو مسايرة الآخرين ومجاملتهم كما لو كانت غطاء نستر به عدم ثقتنا بهم وعداءنا نحوهم. وكما يقول " علي

---

(2) التوحيدي (أبو حيان)، الصداقة والصديق. شرح وتعليق علي متولي صلاح - المطبعة النموذجية القاهرة - بدون تاريخ.

مكتبة الفكر الجديد

زيعور" : "تشكل المحاباة أو المسايرة مع الاغتياب وجهين لنفس الشعور الذي هو عدم احترام مشاعر الآخرين وعدم تحمل حريتهم في الاعتقاد والتفكير ". ويضيف : " إن المجتمع الشديد القساوة يخلق الباعث على الخوف من الآخرين. . . وتجنبا لذلك الخوف أو تغطية له وردا عليه، وجدنا التظاهر بالأدب والإلحاح على الشكليات في الكلام والزي والسلوك الاجتماعي " [3].

وتتخذ ازدواجية المسايرة والعداء أحيانا مظهرا آخر، وذلك عندما نستغيب الآخرين ونبرز سلبياتهم، في الوقت الذي نجاملهم - أثناء حضورهم - ونبدي نحوهم ودا مصطنعا ومشاعر كاذبة. وعندما يتعذر علينا استغابتهم بشكل مباشر (إما لما يتوفرون عليه من سلطة، أو لأن العادات والتقاليد تحول دون ذلك. . .) نلجأ إلى النكتة لتجنب النقد المباشر وما يمكن أن ينجم عنه من مساءلة وتهديد. والنكتة قد تكون تعبيرا غير مباشر عن نقد للسلطة أو تعبيرا عن النقمة على أوضاع غير مرغوب فيها. ويشير **عبد العزيز رفاعي** في دراسة له عن الشخصية المصرية إلى العلاقة بين النكتة والتعبير غير المباشر والرمزي عن النقمة على الأوضاع المعيشية الرديئة وعن الموقف من السلطة المستبدة، ويقول بأن "**أشد الناس بؤسا، وأسوأهم عيشا، وأقلهم مالا أكثرهم نكتة**" [4].

الخجل وتانيب الضمير :

وقد نتساءل : لماذا لايشعر الفرد بالذنب أو تأنيب الضمير

---

(3) زيعور (علي)، مرجع سابق، ص 86.

(4) رفاعي (عبدالعزيز)، الطابع القومي للشخصية المصرية بين الإيجابية والسلبية. دار النهضة العربية. القاهرة. 1971. ص 219 - 220

مكتبة الفكر الجديد

وهو يمارس في حياته اليومية هذه الازدواجية التي يعتبر الحسد والاستغابة والتملق. . . من أبرز مظاهرها؟ إن الشعور بالذنب أو بالندم يعني أن الفرد يتوفر على قدرة التمييز بين الفعل الأخلاقي واللاأخلاقي، وعلى إرادة تدفعه إلى ترجيح الفعل الأخلاقي. وإذا لم يلتزم في أحد المواقف بالفعل الأخلاقي شعر بالذنب والندم وهو شعور يدعم الفعل الأخلاقي، ويعبر عن وجود قوة ذاتية تميل دائما إلى ترجيحه. وعادة ما يطلق فلاسفة الأخلاق على هذه القوة اسم " الضمير " بينما تطلق عليها مدرسة التحليل النفسي مصطلح " الأنا الأعلى ".

إن أسلوب تنشئة الطفل في مجتمعاتنا العربية لايسمح بنمو طبيعي للأنا الأعلى أو الضمير الذي يمكّن الطفل، والراشد فيما بعد، من نقد ذاته والحكم على ما يصدر عنها من أفعال. ففي الحياة العملية لايحكم على الفعل في حد ذاته باعتباره أخلاقيا أو غير أخلاقي وإنما من خلال مواقف الآخرين منه أي أن الحكم عليه يخضع لتبرير خارجي. وبذلك، وكما يرى الفيلسوف الألماني " كانط " Kant، يفقد الفعل صفته الأخلاقية لأنه لم يعد غاية في حد ذاته وتحول إلى مجرد وسيلة. فالأب الذي يطلب من ابنه أن لايسرق لأن الناس يمكن أن يروه يعود الابن على أنه لاما نع من القيام بفعل لا أخلاقي ما دام لا يُرى من طرف الناس. كذلك الشأن بالنسبة لمن يعترض على سلوك مستهجن بترديده العبارة الشائعة، " إذا بليتم بالمعاصي فاستتروا "، فإنه في الحقيقة لايعتبر المعصية فعلا مدانا إذا ما تمت في جو من السرية والكتمان. وبذلك يتساوى الفعل الأخلاقي واللاأخلاقي من حيث المشروعية، ويصبح وجود أو عدم وجود الآخرين هو الذي يحدد

مكتبة الفكر الجديد

ما إذا كان الفعل مباحا أو غير مباح.

لذا لايشعر الفرد بالندم وتأنيب الضمير عندما يرتكب عملا لاأخلاقيا بدون أن يراه الناس. وإذا ما رآه الناس أو علموا بما أقدم عليه فإنه لايشعر بتأنيب الضمير أو الندم وإنما يشعر بالخجل. وهناك فرق جوهري بين الموقفين : فالشعور بالخجل ليس نتيجة لرفض ضمير الفرد الفعل اللاأخلاقي وإنما نتيجة معرفة الآخرين بارتكاب الفرد عملا لاأخلاقيا. إن الفرد قد لايخشى تأنيب الضمير بقدر ما يخشى الفضيحة، وهكذا نجد الأم تكرر على مسامع ابنها أنه من "العيب"، أو من "العار"، أن يفعل كذا لأن الناس سيعيبون عليه القيام بهذا الفعل. أما تأنيب الضمير فيعني أن الفرد يحكم على ذاته بأن ما أقدم عليه يعتبر عملا لا أخلاقيا سواء رآه الناس أم لم يروه. لذا يشعر الفرد بالحزن والندم باعتبارهما عقابا يمارسه الضمير على الفرد. وقد يكون هذا العقاب أشد قسوة وإيلاما من العقاب البدني أو المادي.

مكتبة الفكر الجديد

التمويه يفرز إنسانا متقلّب المواقف: فكرا وممارسة

"لسنا في مجتمع النمل، ولكننا نعيش مجتمع الصراصير.

النمل يتضافر، أما الصرصور فلا يهتم بغيره من الصراصير".

توفيق الحكيم

مكتبة الفكر الجديد

إن المتتبع للحركات السياسية التي يموج بها الوطن العربي الآن لابد وأن تستوقفه ظاهرة تقلّب مواقف كثير من مؤيدي هذه الحركات لاسيما القادة منهم. فنرى الماركسي الذي كان يعتبر الماركسية نظرية مطلقة لايتطرق إليها أدنى شك في مصداقيتها يتحول إلى اتجاه محافظ أو يميني، والقومي الذي كان يرى في القومية العربية الحل الوحيد لخلاص الوطن العربي يتحول إلى داعية للنزعة القطرية الضيقة، والثوري الذي كان يرى في الثورة أسلوبا لا بديل عنه لتغيير الواقع العربي المتخلف أصبح ينادي بمهادنة هذا الواقع والعمل على تطويره من خلال تبني شعارات الديمقراطية وحقوق الإنسان، ورجل العلم والتقنية أصبح داعية من دعاة الطرق وصوفيا من دعاة الصوفية. كل هؤلاء أصبحوا "وعاظا وفقهاء القرن، يرشدون ويتوعدون وهم يحملون فوق أكتافهم صليب تجاربهم الفاشلة... ولا غرابة (في مثل هذا الجو) أن تختفي كلمة الثقة من القاموس الشعبي الجماهيري"[1].

ظاهرة القفز هذه من موقف إلى آخر هل هي ظاهرة طبيعية؟

---

(1) أبو العزم (عبدالغني)، تساؤلات حوّل أزمة الفكر العربي. مجلة «أبحاث عربية». العدد الأول. السنة الأولى (أيار. حزيران. تموز) 1978. باريس. ص16.

مكتبة الفكر الجديد

وما هي أسبابها النفسية والاجتماعية؟

أسبقية الولاء للأسرة والعشيرة على الولاء للمجتمع والوطن:

في اعتقادنا إن البحث عن أسباب هذه الظاهرة يجب أن يتجه إلى التنشئة الاجتماعية التي تسود الأسرة في المجتمع العربي بصفة عامة، وهي تنشئة تقوم بالدرجة الأولى على جعل الطفل العربي يشعر بالولاء للأسرة والعائلة بمعناها الواسع والتي هي استمرار للقبيلة - من حيث المفاهيم السائدة فيها وطبيعة العلاقات بين أفرادها- حيث لا يشعر الفرد بهويته وكيانه إلا في ظل القبيلة التي ترعاه وتحميه. ورغم الاختلافات التي نراها أحيانا في الأسرة العربية من حيث مستوى تطورها، إلا أن نمط التنشئة الاجتماعية الذي يسود هذه الأسرة يعطي الأسبقية للولاء للأسرة والعشيرة على حساب الولاء للمجتمع والوطن والأمة.. بل إن مفاهيم المجتمع والوطن والأمة يكتنفها كثير من الضبابية والغموض في نظر الإنسان العربي. وعندما يصطدم ولاء الإنسان العربي لوطنه بولائه لأسرته لايتردد في تقديم ولائه لأسرته على ولائه لوطنه، بل إن ولاءه لوطنه لا يفهم إلا من خلال ولائه لأسرته وعشيرته وطائفته.. أما شعارات "الشرف" و"الكرامة" و"العرض"... فلا ترفع إلا عندما تتعرض الأسرة أو العشيرة أو الطائفة للتهديد أو الخطر[2].

من هذا المنطلق ربما فهمنا السبب الذي يجعل الولاء الإيديولوجي للإنسان العربي ولاء هشا وضبابيا وينهار أمام أي

---

(2) بركات (حليم)، المجتمع العربي المعاصر بحث استطلاعي اجتماعي. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت. 1986 ص 174 وما بعدها.

مكتبة الفكر الجديد

امتحان يتعرض له. ويحضرني في هذه المناسبة موقف أحد القادة اليساريين العرب الذي بعث باستقالته إلى اللجنة المركزية للحزب الذي ينتمي إليه حيث قال بأنه يؤمن بمبادئ الحزب وأهدافه إلا أنه، وبعد سنوات من النضال والكفاح، يريد أن يعيش بهدوء وأمان مع أسرته بعيدا عن أي تهديد أو خوف أو عدم استقرار. وبعد هذه الاستقالة بفترة قصيرة استمالته السلطة الحاكمة ليصبح بين عشية وضحاها وزيرا. وفي مثل هذه الحالة إن الانتماء السياسي لم يلغ انتماء الفرد إلى أسرته أو عشيرته أو طائفته بل إن توزع الولاءات لم يحدث في شخصية الفرد نوعا من التوازن والانسجام، وظلت هذه الشخصية منقسمة على ذاتها رغم ما يبدو عليها من تماسك ظاهري.

ويشير "**حليم بركات**" إلى أن باحثا عربيا (منير بشور) قام بدراسة تحليلية لمضمون الكتب المدرسية الرسمية في المرحلة الابتدائية، وتبين له من هذه الدراسة أن أسماء أفراد العائلة (أب، أخ، أم...) وردت 1238 مرة في حين لم ترد كلمات تتعلق بالوطن والشعب (وطن، أمة، شعب، حكومة...) إلا عشر مرات.[3]

وهكذا، وكما يقول **هشام شرابي**، تظل فكرة المجتمع والوطن

---

(3) بركات (حليم)، النظام السياسي بين القيم الحضارية التقليدية والحديثة. في كتاب : لله النظام السياسي الأفضل للإنماء في العالم الثالث (لبنان والدول العربية). بيروت. منشورات عويدات. 1971, ص80-94. ورد ذكر هذا المرجع في :
- يسين (السيد)، الشخصية العربية : النسق الرئيسي والأنساق الفرعية. ضمن كتاب «الذاتية العربية بين الوحدة والتنوع» الجامعة التونسية. 1978. ص 179.

مكتبة الفكر الجديد

فكرة ضبابية مجردة ولاتتخذ معنى إلا في ارتباطها بالنماذج الأولية للقرابة والدين » [4].

لكي يتمثل الأفراد مفاهيم الأخلاق والقانون والعدالة :

وأمام تعدد الولاءات في شخصية الإنسان العربي، لاسيما ولاؤه للأسرة والعشيرة، الذي انغرس في بنية شخصيته منذ الطفولة، تتحول مفاهيم القانون والحق والعدالة... إلى مفاهيم سطحية أبعد ما يكون عن معناها الحقيقي. فمفاهيم القانون والحق والعدالة تقوم على أساس الاعتراف المطلق بكرامة الإنسان وحريته بغض النظر عن أي اعتبار يتعلق بانتمائه أو أفكاره أو دينه أو لونه... وعلى مستوى السلطة الحاكمة يتم تشويه هذه المفاهيم لتكون في خدمتها، وعلى مستوى الفرد يتم خرقها كلما أتيحت فرصة ممارسة هذا الخرق دون أن يطاله عقاب... وربما كانت هذه الظاهرة تفسر لنا سبب انتشار الكثير من أنماط السلوك اللاأخلاقي في مجتمعاتنا كالرشوة والمحسوبية والغش والانتهازية... ولانستغرب أن تنتشر هذه الأنماط السلوكية حتى في الأوساط التي تعتبر أكثر من غيرها فهما للقانون أو مكلفة بالسهر على تطبيقه. ومما لاشك فيه أن انتشار هذه الأنماط السلوكية اللاأخلاقية تشكل إحدى العقبات التي تحول دون حدوث تقدم طبيعي في المجتمع، ودون ممارسة حقيقية لحقوق الأفراد السياسية والاجتماعية.

بالإضافة إلى ذلك، إن الأسرة في مجتمعاتنا لاتكتفي بأن

---

(4) شرابي (هشام)، النظام الأبوي وإشكالية تخلف المجتمع العربي. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت. 1992 ص 64.

مكتبة الفكر الجديد

تغرس في نفوس أبنائها أسبقية الولاء لها على الولاء للمجتمع والوطن والأمة، بل إنها تنشئ الطفل في ظل مفاهيم وعادات سلبية لاتحصنه ضد أنماط السلوك اللاأخلاقي والمناهض للمجتمع. فهي لاتتيح له أن يعبر بحرية عما يشعر به وعن آرائه وانفعالاته، وتعوده على أن ينظر إلى ذاته من خلال رأي الآخرين فيه، بحيث لايكون لأي فعل يصدر عنه قيمة في حد ذاته إلا من خلال حكم الآخرين على هذا الفعل سلبا أو إيجابا. وهكذا يفقد الطفل ثقته بنفسه ويحرم من أن تكون له آراؤه الخاصة وشخصيته المستقلة، فلاينظر إلى ذاته إلا عبر الصورة التي يعكسها رأي الآخرين فيه. وهكذا يعود الطفل على أن يقيِّم أي فعل لا بوصفه أخلاقيا أو غير أخلاقي في حد ذاته، وإنما يكتسب هذا الفعل صفته الأخلاقية من خلال مقياس خارجي يتمثل في آراء الآخرين وأحكامهم.

وفي ظل تنشئة من هذا النوع لانتوقع من الفرد أن يبدي تمسكا بقيم القانون والحق والعدالة والحرية... باعتبارها قيما مطلقة، وإنما سينظر إلى هذه القيم بمنظار خارج عنها. وبما أن هذا المنظار الخارجي متقلب ويخضع لاعتبارات نفعية ومصلحية فإن تمسك الفرد بقيم القانون والحق والعدالة والحرية... سيظل تمسكا سطحيا ومتذبذبا.

ومما يعمق نزعة التذبذب في شخصية الطفل أن الأسرة لاتلتزم في تنشئتها له سُلَّما منسجما ومتوازنا من القيم والأحكام. فالأب أو الأم لايترددان في تعويد الطفل على استباحة الخروج عن القيم الأخلاقية والاجتماعية ما دام سلوكه اللاأخلاقي واللااجتماعي لايخضع لرقابة الآخرين. فأمام الآخرين يجب أن يبدو الطفل "مهذبا ومؤدبا وعاقلا ونظيفا..." ولابأس أن يبدو غير ذلك داخل

مكتبة الفكر الجديد

الأسرة أو عندما لايراه الآخرون. إن هذه **الثنائية في السلوك** هي التي تفسر لنا كيف أن الفرد لايحترم القانون عندما يكون في منأى عن الناس وقادرا على خرقه دون أن تطاله رقابتهم.

مكتبة الفكر الجديد

التمويه
وثنائية القول والفعل

"أنا لا أومن ببطولة فردية يمكن أن تنبثق من العدم.
أنا أعتقد ببطولة يحركها التاريخ. فليس الأفراد هم العظماء، وإنما التاريخ هو الذي يجعلهم عظماء.

مارسيل غوشي

مكتبة الفكر الجديد

إن من يتأمل واقع الإنسان العربي المعاصر لابد وأن يتساءل عن السبب الذي يجعل هذا الإنسان يتخبط في تخلف يشمل مختلف المجالات الاقتصادية والفكرية والثقافية، في حين يتوفر الإنسان العربي المعاصر على جميع العناصر الضرورية للتقدم والنمو.

وإذا كانت الفترات التي بدا فيها العرب في تاريخهم المعاصر متحدين متكاتفين قليلة فإنهم أكدوا خلال هذه الفترات القليلة أنهم قادرون على أن يكونوا أمة عظمى تلعب دورا بارزا في التاريخ المعاصر. ولا أعتقد أنه يوجد في العالم العربي الآن من لايقتنع بأن السبيل الوحيد لخروج العرب من المأزق الحضاري الذي هم فيه هو الوحدة والتضامن والتآلف. إذن لماذا لايتبلور هذا الاقتناع ويخرج إلى حيز الوجود ويتحد العرب من المحيط حتى الخليج؟ إن الادعاء بأن الاستعمار هو المسؤول عن عدم تحقيق هذا الهدف، وإن كان مقبولا في إحدى المراحل التاريخية، فإنه لم يعد مقبولا الآن بعد أن استقلت جميع البلدان العربية. وربما اعترض البعض على ذلك بأن الدول التي كانت تستعمرنا سابقا ما زالت تتوفر على بعض التأثير على ما يجري في بلداننا. ورغم أن هذا الاعتراض صحيح إلا أن هذا يعني أن علينا أن ننتظر، لكي نتحد

مكتبة الفكر الجديد

ونتضامن، أن تكون جميع دول العالم إلى جانب وحدتنا وتضامننا تباركهما وتساعدنا على تحقيقهما. إن مثل هذا لم يحدث لدولة ما، ولن يحدث لنا مهما انتظرنا.

ويعود السؤال ليطرح بإلحاح: **لماذا لا نتحد إذن؟** حتى التعاون الذي يتم الآن بين أمم مختلفة، تاريخيا ولغويا وحضاريا... لم يستطع العرب تحقيقه.

لم يعد من المجدي أن يطرح السؤال على رجالات السياسية ذلك أن رجالات السياسية - رغم قدرتهم على اتخاذ القرارات - فإنهم لايستطيعون أن يغيروا بقرار من قراراتهم واقع شعوبهم، وطريقة تفكيرها، وطبيعة العلاقات القائمة بين أفرادها، ونظرتها للوجود وعلاقتها بماضيها، وتطلعاتها نحو المستقبل... إذن إن السؤال يطرح على المفكرين العرب وبصفة خاصة السوسيولوجيين منهم الذين عليهم معاينة الواقع العربي وتسليط الضوء على الأسباب التي تحول الآن دون وحدة العرب وتقدمهم.

إتقان الكلام وتغييب العقل :

إن الإنسان العربي المعاصر الذي انتقل من مجتمع قبلي وعشائري، لم يستطع أن يكيف معايير وقيم هذا المجتمع للمجتمع الحديث، الشيء الذي أحدث تناقضا بين الواقع المعاش للإنسان العربي وبين أفكاره وتطلعاته. هذا **الانفصام بين الفكر والواقع** لم يكن معروفا في المجتمع القبلي حيث أن الكلمة كان يقابلها في الواقع سلوك واقعي معين ومتفق عليه من طرف الجميع الذين يشكلون رقابة صارمة تفرض على الأفراد الالتزام بمضمون الكلمة ومدلولها العملي.

وقد احتلت الكلمة في المجتمع القبلي مكانة بارزة بوصفها

مكتبة الفكر الجديد

النقطة الرئيسية التي تتمحور حولها جملة من العلاقات الاجتماعية والنشاطات المختلفة؛ فبيت من الشعر كان يرفع من قيمة قبيلة ما أو يحط من قدرها، كما أن عهدا قطعه شيخ القبيلة يلزم جميع أفرادها، حتى وإن اضطر الفرد أن يضحي بمصلحته وربما بحياته في سبيل الوفاء بهذا الالتزام بغض النظر عما إذا كان منطقيا أم لا. وهكذا فإن المجتمع العربي القبلي كان **مجتمعا "كلامياً"** إن صح التعبير يحاول فيه الفرد أن يكون منسجما مع جملة من القيم والأعراف التي يمكن استخلاصها من " كلام " الناس الذي هو سجل لما يجب القيام به أو عدم القيام به.

أما على صعيد التنشئة الاجتماعية فإن الطفل العربي ما يزال يخضع لأساليب تربوية كما لو كان المطلوب منه أن يعد ليتكيف مع مجتمع قبلي وليس مع مجتمع حديث يزداد نموا وتعقيدا. فمنذ الصغر والطفل العربي يعود أن يتخذ موقفا سلبيا من الطبيعة والعالم الخارجي بصفة عامة، بل يحال بين الطفل وبين التعامل المباشر والموضوعي مع الطبيعة بواسطة مجموعة من العادات والخرافات. وحتى قصص الأطفال، سواء منها المكتوبة أو التي تردد شفويا على مسامعهم، مليئة بالخرافة والممارسات اللامنطقية، الشيء الذي يشوه علاقة الطفل بمحيطه الخارجي ويحول دون تعود الطفل على التفكير الموضوعي المباشر والسلوك المنطقي المعقول.

وربما كان موقف الأسرة العربية من الأسئلة التي يطرحها الأطفال دليلا كافيا على العقلية التي تسود مجتمعاتنا والتي لم تعد تتناسب ومعطيات العصر. فأسئلة الأطفال لاتعطى أهمية عندما تكشف عن رغبة الطفل في معرفة الظواهر الطبيعية المحيطة به ومحاولة فهمها فهما موضوعيا. وغالبا ما تعطى للطفل تفسيرات

مكتبة الفكر الجديد

خرافية وغير منطقية تحدث البلبلة والتشتت في ذهنه. ولاتعطى أسئلة الطفل أهمية إلا عندما تتعلق بالأشخاص، ذلك لأن الطفل لايعد ليتعامل مع الطبيعة من خلال فهم القوانين المتحكمة بها، وإنما ليتعامل مع الأشخاص الذين يعيشون في بيئته ومجتمعه. وعلى هذا نفهم الأهمية التي توليها الأسرة العربية لكلام الطفل. ويكتشف الطفل أن إتقانه الكلام هو الذي يمنحه العطف والاهتمام من طرف أسرته، بحيث تنمو قدرته الكلامية على حساب قدراته الأخرى وبصفة خاصة قدرته العقلية. فإذا كنا نهتم بالإجابة على أسئلة الطفل المتعلقة بالعالم الخارجي فإننا نهتم كثيرا بتعليم الطفل كيف يحيى الآخرين ويرد على التحية، وكيف يودعهم ويستقبلهم، وكيف يسب ويشتم، وكيف يشتكي ويعبر عن ضعفه.. إلخ. وكل ذلك لايتطلب من الطفل أي مجهود عقلي إذ يكفيه أن يحفظ عبارات، هي بمثابة كليشيات جاهزة، يرددها في مواقف معينة.

وفي هذه المرحلة تبدأ الأسرة بممارسة عملية قمع خطيرة النتائج إذ أنها تقتل في الطفل الميل للابتكار والتفكير المنطقي السببي، والرغبة في التساؤل، وتعده لتبعية قاتلة تتخذ أشكالا مختلفة فيما بعد. وهكذا، يتم تغييب خطاب التساؤل في شخصية الطفل ليحل محله خطاب التلقين والحفظ والمواقف الجاهزة...

ومما لاشك فيه إن خطاب السؤال "**يولد الأفكار، ويعطي للسلب مكانة وللشك قيمة، وللنقد أهمية... إنه خطاب تتجلى فيه خصائص التفكير : خطاب العقل**"[1].

(1) بنعبدالعالي (عبدالسلام)، ثقافة الأذن وثقافة العين. دار توبقال للنشر. الدارالبيضاء. 1994. ص 36.

مكتبة الفكر الجديد

إذلال الطفل يدعم من أهمية الكلام كوسيلة تمويه:

ولعل أبرز ما تسفر عنه عملية القمع الفكرية التي يتعرض لها الطفل في المراحل الأولى من طفولته هي أنه يفقد القدرة - عندما يصبح شابا - على الانتقال من ممارسة الواقع إلى فهم هذا الواقع فهما علميا منطقيا. فالطفل لايعود الموضوعية والمواجهة المباشرة، سواء مواجهة الطبيعة أو مواجهة الآخرين. فهو يتعامل مع الطبيعة من خلال مفاهيم خرافية وغير منطقية، كما يتعامل مع الآخرين - وبصفة خاصة والديه - من خلال عادات كلامية يستر بها ما يشعر به إزاء الآخرين من ضعف وخوف وحذر.

ومما يزيد في لامعقولية تعامل الطفل مع الآخرين هو **العقاب الجسدي** الذي يتعرض له، وما يخلفه من شعور بالمهانة والإذلال يضطر الطفل إلى كبته وعدم إظهاره. ونتيجة لذلك فإن الطفل ينشأ وهو لايميل إلى الصدق والمواجهة الموضوعية وإنما يميل إلى الكذب والحقد واغتياب الآخرين أو مجاملتهم ومسايرتهم... إلى غير ذلك من مظاهر السلوك التي تكشف سلبية الطفل إزاء العالم الخارجي بصفة عامة. وليتذكر كل منا بعض مراحل طفولته : ألم نصفع مرات عديدة وفي مواقف مختلفة من طرف والدينا أو إخوتنا الكبار أو من يقوم مقامهم؟ ألاتزال ذكرى هذه الصفعات ماثلة في أذهاننا حتى الآن وما رافقها من شعور بالإذلال؟ فكيف ننتظر من طفل نذله ونحتقره في مناسبات مختلفة أن يكون صادقا في تعامله معنا وأن يتعود الموضوعية والصراحة في مواجهته للطبيعة والآخرين؟

وعملية إذلال الطفل التي تشرع الآسرة في القيام بها يتابعها المعلم في المدرسة. فبدلا من أن تخفف المدرسة من شعور الطفل

مكتبة الفكر الجديد

بالإذلال والمهانة إذا بها تكرس هذا الشعور وتعمقه وتعطيه بعدا جديدا. فمن منا لم يعاقب جسديا في سنواته الدراسية الأولى؟ بل إن العقاب الجسدي في المدرسة يتخذ أحيانا طابعا عدوانيا واضحا إزاء الطفل، ويمارسه المعلم وإدارة المدرسة بكيفية منظمة وبدون رحمة. وحتى الآن فإن مدارسنا تعرف أحيانا مظاهر للعقاب الجسدي للتلاميذ يخجل الإنسان من رؤيتها.

وإذا كان العقاب الجسدي فيه إذلال للتلميذ فإن أُسلوب التلقين الذي يقوم عليه نظام التدريس في مدارسنا يعمق شعور الإذلال لدى الطفل لأنه يمثل إرهابا عقليا لايقل تأثيره السلبي عن تأثير العقاب الجسدي نفسه. بل إن التلقين غالبا ما يمارس في جو من الدكتاتورية والتخويف بحيث يشعر الطفل بأنه مهدد دائما بالعقاب دون أن يكون لهذا العقاب أي تبرير منطقي في نظره، إذ أن العقاب الجسدي دائما يمارس على الطفل دون أن يكلف ممارسوه أنفسهم حتى شرح الخطأ الذي ارتكبه الطفل لكي لايعتبر الطفل العقاب بمثابة عدوان عليه. وماذا ننتظر من طفل يُضطهد في أسرته وفي المدرسة؟ إن الموضوعية في الفكر والسلوك أُسلوب هادئ ومتزن لايمكن أن ينمو إلا في جو من الهدوء والاتزان. وفي هذا المجال تخطر ببالي حادثة لايمكن أن أنساها حدثت في إحدى أسرنا العربية : طفل مزق غشاء مقعد في منزله، وكان عقاب والده له أن ضربه بقضيب على يديه " لكي يتعلم ولايعيد هذا الفعل ". وأحدث الضرب تسمما في إحدى يديه مما اضطر الطبيب الذي عالجه أن يقطعها. عندما زار الأب ابنه في المستشفى قال له الابن ببراءة وحزن : " والدي أعدك بأني لن أمزق غشاء المقعد ثانية ولكن أعد لي يدي التي قطوها لي ". ما كان من الأب لشدة

مكتبة الفكر الجديد

تأثره، أن عاد إلى المنزل وأخذ مسدسه وأفرغ رصاصات في رأسه ومات.

إن إذلال أطفالنا لايمحوه ما نبديه إزاءهم من اهتمام وعناية وحب، بل إن عنايتنا بأطفالنا غالبا ما لانرمي من ورائها إشباع حاجيات الأطفال أنفسهم، وإنما نريد أن يحكم علينا من خلالهم فنعاملهم كأشياء لا ككائنات بشرية لها شعورها ورغباتها واهتماماتها... نريد من الطفل أن يكون نظيفا مجتهدا مؤدبا ناجحا بل متفوقا في كل شيء، ولكن هل كنا نحن الآباء كذلك عندما كنا أطفالا؟ إننا نريد أن **نحقق في أطفالنا وبواسطتهم ما لم نستطع أن نحققه في حياتنا**، وبذلك لايعيش أطفالنا طفولتهم وإنما يعيشون لنا ومن أجلنا، بل إننا نعتبرهم امتدادا لنا وملكية نتصرف بها كما نريد.

وعندما نتطلع إلى واقع مدارسنا سنرى أنها، في وضعها الحالي، لاتعمل على مساعدة الطفل كي يفهم البيئة الطبيعية المحيطة به فهما عقليا منطقيا، وكي يتعود أن يقيم علاقات مع الآخرين تقوم على أساس الاحترام والمساواة. فمدارسنا مكدسة بالتلاميذ، ولاتتوفر فيها الشروط المادية والتربوية الضرورية، بحيث يتحول التعليم إلى تلقين سلبي لمعلومات تقدم جاهزة دون أية إثارة لتفكير الطفل وأية مراعاة لاهتماماته وميوله. وعندما يحشر الأطفال في أقسام الدراسة يجدون أنفسهم معزولين عن العالم الخارجي ليعيشوا، من خلال الكتب وما يلقنه لهم المعلمون، عالما كلاميا يقترب من عالم الخيال ولايكلفهم الاحتكاك بالواقع. وبذلك تزداد الهوة اتساعا بين ما يلقن للطفل وبين الواقع الذي يعيشه، الشيء الذي يعتبر تعزيزا للثنائية التي تقوم عليها التنشئة الاجتماعية داخل

مكتبة الفكر الجديد

الأسرة: **ثنائية الظاهر والباطن، السلوك المعلن والسلوك الخفي، القول والفعل... إلخ. وهكذا تزداد المسافة اتساعا بين الكلمة والفعل**، ويفقد الالتزام كل معانيه.[2]

وإذا كانت المدرسة تفشل في أن تعطي للطفل صورة موضوعية عن البيئة الطبيعية المحيطة به، فإنها تفشل أيضا في تعويده على إقامة علاقات اجتماعية مع أمثاله على أساس الاحترام والمساواة. إن جو الإرهاب والقمع الذي يسود مدارسنا لايشجع على إقامة مثل هذه العلاقات، بل إنه على العكس من ذلك يشجع على تأكيد النزعة الفردية والميول العدوانية والانطواء على الذات. وهذه حقيقة أكدتها بكيفية تجريبية، دراسات تربوية واجتماعية عديدة... فالطفل الذي يعزل عن البيئة الطبيعية، ويعامل بنوع من القمع والتهديد، لاننتظر منه أن يكون في المستقبل ذلك "**المواطن الصالح**" الذي يتميز بخصال التعاون والتضحية واحترام الآخرين.

التفكير الفروسي كبديل عن المواجهة :

وعندما ننتقل إلى مستوى المجتمع العام نجد أن الواقع الكلامي للإنسان العربي يصبح أكثر وضوحا، وينعكس على مختلف المواقف التي يواجهها، وتؤطره جملة من المؤسسات والعادات والمفاهيم. ونظرا لانفصال الكلمة عن مدلولها الواقعي، فإن الواقع الكلامي للإنسان العربي خلق له جوا أشبه ما يكون بأحلام اليقظة يمارس فيه مواجهاته ومعاركه ولكن بكيفية وهمية. وبذلك يتاح له أن يتحرر من توتراته النفسية وانفعالاته دون أن

---

(2) نصار (كريستين)، مواقف الأسرة العربية من اضطراب الطفل. جروس برس. طرابلس. لبنان. 1993. ص 130-131.

مكتبة الفكر الجديد

يكلفه ذلك التحرر الفعلي على صعيد الواقع. وهذا الأسلوب في المواجهة ينعكس على سلوك الجماعة والفرد [3]. فعلى مستوى الجماعة لنتذكر - على سبيل المثال - الضجة الكلامية التي أحدثها إحراق المسجد الأقصى من طرف الاسرائيليين لدرجة أن الكثيرين توقعوا اندلاع حرب جديدة بين العرب وإسرائيل بين لحظة وأخرى. إلا أن شيئا من هذا لم يقع، وهدأت الضجة الكلامية، واستأنف الإنسان العربي عيش واقعه الكلامي. أما على صعيد الفرد فإن ابتعاد الإنسان العربي عن الواقع جعله يمارس أنماطا من السلوك تتميز بالهروب واللامعقولية. ولا أدل على ذلك من انتشار الإيمان بالخرافة والشعوذة، وانعدام ثقة الفرد بغيره، واغتيابه للآخرين وحسده لهم، وعدم الصراحة والتملق... إلى غير ذلك من المظاهر السلبية للسلوك.

بالإضافة إلى ذلك إن انفصال الكلمة عن الفعل دعم **التفكير الفروسي الدونكيشوتي** لدى الإنسان العربي الذي يعيش على حلم بأن يظهر يوما ما ذلك البطل أو القائد العملاق فيخلصه من واقعه ويحقق له أحلامه وطموحاته. وعندما يعلق الإنسان العربي آماله على قائد ما إذا به يكتشف - بعد فترة من الزمان - أن القائد لم يحقق له ما كان يطمح إليه، فيصاب هذا الإنسان بنكسة نفسية. إلا أن كثرة النكسات والصدمات عودته أن يتكيف معها بسرعة ليعود من جديد فينتظر بطلا آخر ينقذه مما هو فيه. ألا يمكن اعتبار ذلك نوعا من التفكير الفروسي الغيبي الذي يمارس بكيفية جماعية؟ فإذا

(3) زيعور (علي)، قطاع البطولة والنرجسية في الذات العربية. دار الطليعة. بيروت. 1982. ص : 33-40.

مكتبة الفكر الجديد

كان فارس القبيلة فيما مضى قادرا على تحقيق الانتصار والمجد لقبيلته فإن الشعوب في المجتمعات الحديثة، وليس الفرد، هي التي تحقق المجد والانتصارات. بل إن البطل، رغم ما يتوفر عليه من صفات تميزه عن الآخرين، ليس سوى تجسيد لإرادة الجماعة التي ينتمي إليها، فهو لايصنع التاريخ وإن كان هو الذي يتصدر الأحداث التاريخية، إن **الشعوب هي التي تصنع تاريخها**.

إن **ظاهرة جمال عبدالناصر** وتعلق الجماهير بشخصيته إلى حد التماهي أو التقمص، وشعور الجماهير العربية بالإحباط الشديد عند موته إلى درجة أن البعض اعتقد أنه لم يمت وسيعود يوما ما، تؤكد أن شخصية الإنسان العربي لم تتخلص بعد من التفكير الفروسي الذي هو من مخلفات مجتمع القبيلة مما جعلها "**تستسلم أكثر مما تساهم وتنتظر أكثر مما تنظر**" [4]. ولم يستوعب الإنسان العربي المعاصر حتى الآن أن عصر الأبطال، بالمعنى الذي ألفه، قد انتهى ولم يعد هناك مجال لظهور الأبطال أو الفرسان الذين يواجهون المصاعب بدون خوف أو ندم، ويعرضون حياتهم للخطر من أجل خير الجماعة والإنسانية. وكما يقول الفيلسوف "**مارسيل غوشي**" فإن الأبطال - في الماضي - كانت توجه سلوكهم قوة قاهرة، «قوة البرهنة على الشجاعة تجاه ما هو مرفوض عندما لايكون ممكنا بشكل أساسي القيام بأي شيء آخر سوى قول لا... إن البطل في الواقع أخذ يتلاشى بقدر ما يتقدم التاريخ...، ظهوره ارتبط باكتشاف العالم وبالبعثات الكبرى وبفكرة التقدم مثلما كان

(4) زيعور (علي) : التحليل النفسي للذات العربية. أنماطها السلوكية والأسطورية. دار الطليعة بيروت.1977. ص .26

مكتبة الفكر الجديد

يتصورها عصر الأنوار، في حين إن اكتشاف العالم اليوم يكاد يكون قد انتهى " [5]. والحروب لم تعد تعاش على أنها لحظة مجد بسبب تطور التكنولوجيا التي قللت من إمكانيات الإبداع البشري وبالتالي حدت من ظهور الفعل البطولي والمبادرة الفردية. و " الانتشار المفرط للإعلام دق أجراس الحداد على البطل الحقيقي، فلايمكن للمرء أن يكون بطلا تحت أضواء الكاميرات، الفعل البطولي يقتضي التفرد والخفاء... إنه فعل يتم بين الذات وذاتها ". [6]

بعد هذه الصورة غير المتفائلة للواقع الكلامي للإنسان العربي يرتسم في أذهاننا سؤال تلقائي : كيف يمكن للإنسان العربي إذن أن يخرج من هذا المأزق الذي يوجد فيه؟ وربما يبدو للوهلة الأولى أن السؤال يهم رجال السياسة باعتبارهم " أصحاب القرار" . ولكن لقد تبين تاريخيا أن الحل السياسي لم يخرجنا من هذا المأزق. فكثير من الأنظمة العربية تغيرت وطرحت شعارات براقة ومثيرة ولكنها لم تستطع أن تغير تغييرا جذريا الواقع المعاش للغالبية العظمى من أفراد الشعب وطريقة تفكيرها ونظرتها للحياة. إن ما يحدث من تغيير في الشعارات والواجهات يظل محصورا في نخبة تتصارع على السلطة، أما المواطن العادي الذي يمثل غالبية أفراد الشعب فيتخذ موقف التفرج واللامبالاة. فرغم ما يطرح من شعارات تتحول السلطة إلى غاية في حد ذاتها تهدف إلى ضمان استمرارها وحماية نفسها وتبذل كل إمكانياتها لتحقيق هذا الهدف.

---

(5) جيرار (إيزابيل)، أين هم أبطال اليوم ؟ جريدة الاتحاد الاشتراكي المغربية. 21 أغسطس 1994. ص : 7 نقلا عن مجلة «حدث الخميس» الفرنسية.

(6) نفس المرجع السابق.

مكتبة الفكر الجديد

ويكتشف المواطن العربي أن الذي تغير في النهاية ليس الواقع الذي يعانيه وإنما الصيغ الكلامية التي يرددها من بيدهم السلطة.

لقد أبرزت الأحداث التي شهدها تاريخ العرب المعاصر على الخصوص أنه لابد من **إعادة النظر في أولوية الأهداف السياسية على الأهداف الثقافية والفكرية**، تلك الأولوية التي أخذت بها الحركات السياسية في العالم العربي. لقد أخطأت هذه الحركات عندما اعتقدت أن كل شيء سيتغير بمجرد تغيير الواجهة السياسية، وهو خطأ يماثل الخطأ الذي يقع فيه الآن بعض العرب الذين يعتقدون أن البترول العربي، بما يحققه من عائدات مالية ضخمة، يمكنه أن يخرج العرب من مأزقهم الحضاري الراهن، وفي خلال سنوات قليلة. لقد غاب عن هؤلاء أنه ليس من السهل خلق إنسان عربي جديد ينفض عن كاهله التفكير الخرافي والغيبي ويؤمن بالعلم ويثق بنفسه وبقدرته على أن يمارس إنسانيته في ظل مجتمع تسوده العدالة والحرية والكرامة. وعندما نقول بضرورة إعطاء الأولوية للفكر والثقافة والوعي على الأهداف السياسية لايعني ذلك فصل السياسة عن الثقافة، وإنما فقط إعطاء الأسبقية للعامل الذي سيضمن فعالية القرار السياسي ألا وهو الوعي والفكر النقدي العلمي الذي يمارس في جو من الحرية واحترام الكرامة الإنسانية. فبغض النظر عن الواجهات السياسية للأنظمة العربية لاتزال غالبية المواطنين العرب من الأميين، بل إن هذه الأمية في ازدياد مستمر إذا قيست بنسبة زيادة عدد السكان، كما لايزال الإنسان العربي يطارد من أجل فكره ويهدد في رزقه وأسرته وربما بحياته من أجل فكرة يحملها.

مكتبة الفكر الجديد

القراءة
كوسيلة لانهيار جدار التمويه ولترسيخ قيم المعرفة والديمقراطية

"إن الكومبيوتر قد يهيمن على القرن الواحد والعشرين، غير أن القراءة ستبقى أمرا حيويا للإبقاء على الإبداع والخيال والقدرة على التغيير. وستظل الكتب دعامة للتعليم وانتشار المعرفة وتضفي صبغة ديمقراطية على الثقافة والفرد والنزعة الكلية نحو تطوير الذات"

«أرنستور زيديو»

رئيس جمهورية المكسيك

مكتبة الفكر الجديد

القراءة نقيض الجهل، والجهل هو العدو الأول للإنسان. وهذا ما جعل **جفرسون** (الرئيس الأمريكي الثالث) يقول : "**إن الذين يقرأون فقط هم الأحرار، لأن القراءة تطرد الجهل والخرافة، وهما من ألد أعداء الحرية**". فالكلمة المكتوبة من شأنها تطوير الفكر وتقدم الإنسان، لأنها هي الناطقة الرسمية باسم العقل على حد تعبير «**ريجيس دوبريه**». وبالعقل وحده يتطور الفكر ويتقدم الإنسان. ومن خلال القراءة ننمي مايسمى «**ثقافة العين**» [1] أي الثقافة النقدية التي تعتمد الحوار وقبول الاختلاف كسلوك شرعي ومنطقي. وعلى هذا يمكن القول بأن تعميم القراءة من شأنه أن يرسخ قيم العلم والحوار وشرعية الاختلاف... وغيرها من القيم الإنسانية، وبالتالي يعمق الممارسة الديمقراطية باعتبارها تأكيدا لهذه القيم [2].

أهمية القراءة في نمو شخصية الطفل :

أكدت الدراسات المتعلقة بالتعلم أن القراءة تنمي ذكاء الطفل

---

(1) بنعبدالعالي (عبدالسلام)، ثقافة الأذن وثقافة العين. دار توبقال للنشر. الدارالبيضاء 1994 - ص 7.

(2) نورالدين (محمد عباس)، التنشئة الاجتماعية للطفل. سلسلة المعرفة للجميع. منشورات رمسيس. 1998. ص 33-43.

مكتبة الفكر الجديد

وقدرته على تمثل القيم الأخلاقية والاجتماعية السائدة في المجتمع، واكتساب الكثير من الخبرات والمعلومات التي لايمكن له اكتسابها من مجرد احتكاكه بالواقع. بالاضافة إلى ذلك إن القراءة تنمي لدى الطفل التفكير المنطقي وتساعده على تكوين صورة إيجابية عن ذاته وعن العالم المحيط به، وتتيح له الفرصة لإبراز ما تتميز به الطفولة من عفوية وصدق وفرح، وبذلك تبعده عن التمويه مما يزيده فهما لذاته وتقديرا لها، ويكوّن صورة موصوعية عنها ويكتسب الثقة بالنفس... وهو أحوج ما يكون إلى هذه الصفات لنمو شخصيته بكيفية متوازنة وعقلانية.

وفي الوقت الذي ينمي فيه الطفل لغته من خلال القراءة، فإنه ينمي تفكيره وقدراته العقلية. والدراسات النفسية والتربوية المتعلقة بموضوع اللغة تبرز ارتباط اللغة بالتفكير، فنحن نفكر باللغة ومن خلالها. والأفكار هي عبارة عن حوار داخلي " مونولوغ " أو كلام غير مسموع. كما أن القراءة تنمي خيال الطفل إذ تتيح له أن يتخيل الأشخاص والأشياء والحيوانات والمواقف... التي يتحدث عنها النص الذي يقرأه. وكما يقول "**مصطفى حجازي**" إن الطفل يقرأ ليحلم وليتعلم وليضحك ". [3] والقراءة توفر له ليس فقط الشعور بالمتعة وتنمية خبراته ومعلوماته وإنما أيضا تنمي خياله الذي سيساعده على تمثل أدوار الاخرين والتكيف معها. وما اللعب الإيهامي أو التمثيلي الذي يمارسه الطفل إلا صورة لتوظيف

(3) حجازي (مصطفى)، مع مجموعة من الاختصاصيين، ثقافة الطفل العربي بين التغريب والأصالة. منشورات المجلس القومي للثقافة العربية. الرباط. 1990. ص194.

مكتبة الفكر الجديد

خياله في فهم ما يقوم به الأشخاص المتواجدون في محيطه من أدوار والتعبير عن ما يشعر به إزاء هؤلاء الأشخاص.

ويجب أن نأخذ بعين الاعتبار أن الطفل يتوفر على خيال واسع ورغبة كبيرة في معرفة ما يحيط به، ويتجلى ذلك في ما يبديه من فضول وما يطرحه من أسئلة واستفسارات يريد من خلال ما يتلقاه من أجوبة عليها أن يتعرف على العالم الخارجي وما يدور حوله من مواقف وأحداث. لذا يجب استثمار النصوص المقدمة للطفل بطريقة تستجيب لهذه الحاجيات، وبذلك تصبح القراءة أمرا ممتعا بالنسبة له يشبع بواسطتها رغبته في المعرفة واكتشاف العالم الخارجي، وبالتالي تكيفه مع هذا العالم والسيطرة عليه.

أية قراءة لتحرير الفكر؟

ولكن أية قراءة يمكن لها أن تحرر الفكر وتبعده عن الخرافة والجهل وتعمق قيم الحرية والعلم والحق... والكرامة الإنسانية؟ فإذا كانت نسبة المتعلمين في بلد كالمغرب مثلا، أي الذين يعرفون القراءة، تقدر بخمسة وأربعين بالمائة، [4] فمن بين هؤلاء المتعلمين ماهي نسبة الذين يقرأون حبا بالمعرفة، وباعتبار القراءة متعتهم الشخصية ووسيلتهم لاكتساب المعرفة والإحاطة بمستجداتها في مختلف ميادين الحياة؟ وإذا كنا لانتوفر على إحصائيات دقيقة بهذا الشأن إلا أننا نتوقع أن تكون نسبة الذين يقرأون بهذا المعنى قليلة جدا. وواقعنا يكشف أن القراءة الواعية نادرا ما تشكل إحدى هواياتنا، وقلما نمارسها. ولعل أبرز تأكيد لهذه الحقيقة ضعف

---

(4) غليون (برهان)، مجتمع النخبة. معهد الانماء العربي. بيروت. 1986. ص252.

مكتبة الفكر الجديد

انتشار الكتاب في مجتمعاتنا. ولو عدنا إلى الإحصائيات المتعلقة بانتشار الكتاب في العالم العربي لواجهتنا **حقيقة "مرعبة"** على حد تعبير أحد مديري دور النشر العرب، لاتليق بالعالم العربي وتنعكس سلبا على إسهاماته الفكرية وعطاءاته الثقافية. وحسب إحصائيات اليونسكو يقدر عدد ما ينشر من الكتب في العالم العربي بـ 35 كتابا لكل مليون نسمة، وتصل هذه النسبة في أوروبا إلى 558 كتابا لكل مليون نسمة. (5)

إن الإنسان القارئ يدرك أن بإمكانه الحصول على المعلومات التي يحتاج إليها في حياته العملية وتنمية أفكاره وخبراته بالرجوع إلى الكتاب. وعلى سبيل المثال إن الأب القارئ سيستشير الكتب المتخصصة ليزداد معرفة بحاجيات أبنائه وكيفية تعامله معهم وذلك قصد التعامل السليم مع أبنائه، بحيث لايعتمد فقط على المعلومات المتناثرة التي لديه والتي يسمعها من الآخرين. ويستطيع الإنسان القارئ، عندما يطلع على كتاب ما، أن يصدر حكما على الكتاب قبل أن يقرأه بالتفصيل وذلك من خلال تصفحه السريع لعناوين الكتاب، والمواضيع التي يتناولها، والوقوف عند بعض فصوله وبعض الفقرات منها، والتعرف على مؤلف الكتاب، مما قد يساعده على التأكد من كفاءته في تناول المواضيع المطروحة... إلى غير ذلك من المعلومات التي تلعب دورا هاما في الحكم على الكتاب قبل قراءته المفصلة، وفي اتخاذ القرار بشأن اقتنائه أو عدم اقتنائه. أما الإنسان غير القارئ، رغم أنه يعرف القراءة والكتابة،

---

(5) القباج (محمد مصطفى)، الأمية في المغرب هل من علاج ؟ سلسلة المعرفة للجميع. الرباط. 1998. ص 138.

مكتبة الفكر الجديد

فإنه عندما يكون أمام كتاب ولايجد فيه المعلومات التي يبحث عنها ينتابه شعور بالذنب لأنه لم يتمكن من الحصول على المعلومات التي يريدها، ولكونه لايستطيع الحكم على الكتاب في حد ذاته فإنه لايشكك بالكتاب وإنما في قدرته على استخدام الكتاب، مما يجعله يتجه للبحث عن المعلومات المطلوبة من مصدر آخر غير الكتاب. (6)

بالإضافة إلى ذلك، إن الإنسان غير القارئ لايستطيع أن يفهم مباشرة النص الذي يقرأه، ولكي يفهم النص يحيله إلى خطاب سمعي وكأنه يسمعه من آخرين. إنه يمارس قراءة سمعية تعتمد على الأذن التي تقرن بالنقل والحفظ والذاكرة، أي تعتمد الثقافة الشفوية أو ثقافة الأذن. بخلاف ثقافة العين أو ثقافة الكتابة التي تقترن بالتفكير والبصيرة والعقل. (7) **إن ثقافة العين أو ثقافة الكتاب هي ثقافة الوعي والحضور واليقظة والصبر... أما ثقافة الأذن أو ثقافة السمع فهي ثقافة الطاعة والتقليد والإغفاء.** وكثيرا ما نسمع من بعض الذين يعرفون القراءة (القراءة السمعية) أنهم لايقدرون على القراءة لمدة طويلة، بل إن بعضهم لايقرأ إلا لينام أو ليتمكن من الإغفاء في أسرع وقت ممكن. وإذا حاول أحد من هؤلاء أن يقرأ كتابا بأكمله فإنه يستغرق أياما طويلة في قراءة الكتاب، لأنه لايستطيع أن يقرأ سوى بضع صفحات في اليوم. إن القراءة بالنسبة لهؤلاء ليست هواية ممتعة، وهي مرتبطة في لاشعورهم بالمدرسة

---

(6) راجـــع: FOUCAMBERT (Jean), Questions de lecture. Ed. Retz. AFL. Paris. 1989 P. 22-23.

(7) بنعبدالعالي (عبدالسلام)، مرجع سابق. ص 7.

مكتبة الفكر الجديد

وما تعنيه المدرسة من عناء وواجبات مدرسية ومعلم ونظام بل وحتى عقاب ...[8] وما لم ننزع عن القراءة الصبغة المدرسية، وما لم نحبب أطفالنا بالقراءة ابتداء من السنوات الأولى من التعليم بحيث تثير فضولهم ورغبتهم في المعرفة وتتحول إلى متعة شخصية، فإن نسبة غير القراء في مجتمعنا ستظل مرتفعة حتى لو ازدادت نسبة المتمدرسين.

وتتحدث المربية "**كريستيان كليس**" في كتابها "من الكلام إلى القراءة" الذي ساهمت به مع اختصاصيين آخرين، عن تجربة قامت بها بإحدى المدارس الابتدائية على تلاميذ القسم التحضيري Cours préparatoir وذلك قصد تعويد التلاميذ على اكتشاف متعة القراءة ونزع الصيغة المدرسية عن الكتاب والانتقال من " الكلام إلى القراءة "[9]. وتقوم تجربة " كليس " على إتاحة الفرصة للأطفال لتداول الكتاب بحرية، بحيث كانت تضع في ركن من الفصل الدراسي مجموعة من الكتب التي تتناسب مع مستوى الأطفال وتترك لهم حرية تصفح هذه الكتب واختيار بعضها لمطالعته في المنزل ثم استبداله بكتاب آخر بعد الانتهاء من قراءته. وتقول " كليس " بأنها اكتشفت أن الأطفال كانوا يبدون رغبة واضحة في التحدث إليها عن الكتاب الذي قرأوه وكأنهم يريدونها أن تشاركهم المتعة التي يشعرون بها نتيجة قراءتهم للكتاب. ولقيت هذه التجربة استحسانا من طرف الآباء الذين

---

(8) راجع : FOUCAMBERT. Op.Cit. P. 14.

(9) راجـــع : LENTIN (L.), CLESSE (e.), HEBARD (J.), du Parler au lire. T 3. Ed ESF. 1977. Paris.P 147-148.

مكتبة الفكر الجديد

لاحظوا اهتمام أبنائهم المتزايد بالمطالعة.

وإذا طبقت فكرة " مكتبة الفصل " في المدرسة، بدءا من الأقسام الابتدائية، وفي جو من المبادرة الحرة والتلقائية بعيد عن أي التزام أو ضغط، يمكن لها أن تعزز ألفة التلاميذ بالكتاب، وتجعل من الكتاب مصدر متعة بالنسبة للتلاميذ الأمر الذي لابد وأن ينعكس إيجابيا على شخصياتهم وحياتهم بصفة عامة. (*) وقد يعترض البعض على فكرة " مكتبة الفصل " بأن أحداث مكتبة مصغرة داخل الفصل الدراسي يمكن أن تعرقل السير العادي للفصل، بحجة أن عملية إتاحة الفرصة أمام التلاميذ لتبادل الكتب، أو إثارة نقاش حول مضامينها... قد يضيع وقتا في نشاط خارج عن الدروس العادية التي يتولى المعلم تلقينها. والواقع إن الوقت الذي يقضيه التلميذ في المطالعة ليس وقتا " ضائعا "، بل ربما كانت أهميته تفوق أهمية الدروس العادية لما له من تأثير إيجابي على علاقة التلميذ بالقراءة بصفة عامة. ويمكن للمعلم أن يقوم بتنشيط "مكتبة الفصل" في الوقت الذي يكون فيه التلاميذ قد بدأوا

(*) لقد أتيح للباحث، عندما كان أستاذاً لمادة الفلسفة بمدارس محمد الخامس بالرباط، أن يطبق فكرة مكتبة الفصل، حيث كان التلاميذ يتبرعون بعدد من الكتب المتنوعة بالإضافة إلى تبرع الأستاذ بمجموعة من كتبه الخاصة. وكانت الكتب تتداول بين التلاميذ باختيارهم، ويقوم بعضهم بتلخيصها، أو تلاوة منتخبات منها راقتهم وتذوقوا معانيها، وأحياناً يثار نقاط حول مضامينها.

ويسجل الباحث بهذا الصدد أن التلاميذ الذين تحمسوا لهذه الفكرة وشاركوا في إنجاحها، تمكن معظمهم من مواصلة تعليمهم العالي، وهم الآن يحتلون مكانة بارزة في مجالات متنوعة في المجتمع المغربي خاصة منها العلمية والثقافية.

مكتبة الفكر الجديد

يشعرون بالتعب وربما الملل من الدروس العادية. وتجمع الأبحاث العصبية - الفزيولوجية Neurophysiologie على أن استعداد الدماغ للإثارة وتلقي المعلومات من الخارج يعرف بعض التراجع بعد تناول الغداء، ليرتفع هذا الاستعداد من جديد خلال الجزء الثاني من فترة بعد الظهر[10].

وخلال فترة تراجع استعداد الدماغ يمكن للمعلم أن يشغل وقت التلاميذ بأنشطة لاتتطلب مجهودا عقليا وانتباها كبيرا... وقد يشكل تنشيط مكتبة الفصل أفضل استغلال لهذه الفترة من اليوم المدرسي حيث يكون التلاميذ في أمس الحاجة إلى الاسترخاء وإلى القيام بنشاط ممتع يهيئهم لاستعادة حضورهم الذهني ومتابعة بقية الدروس بمزيد من الانتباه.

إن القراءة ليست الترجمة الشفوية للنص، وإنما هي أشبه ما يكون بسؤال نطرحه على النص الذي نقرأه، ونستخلص من النص جوابا يضيف إلى معلوماتنا جديدا. واعتبرت القراءة بهذا المعنى وكأنها مشاركة في إعادة كتابة النص من جديد، ويرى أحد الخبراء في هذا المجال أن فهم النص يستند إلى عشرين بالمائة من المعلومات التي تنقلها العين، أما الثمانون بالمائة الباقية من المعلومات فترد من القارئ نفسه [11]. وفي بعض الأحيان، نجد القارئ يعقب على النص أثناء قراءته ويسجل على هامش الصفحات بعض ملاحظاته وتساؤلاته التي تكشف وكأنه يحاور النص ويناقشه.

---

(10) راجع : MONTAGNER (Hubert), En finir avec l'échec à l'école. Ed. Bayard. 1986. Paris. P. 175.

(11) راجع: PATTE (Genevieve) , laissez-les lire. Ed. Ouvriers.1978. Paris P 30-31.

مكتبة الفكر الجديد

الحرمان الثقافي والقراءة :

إن الفئات الفقيرة داخل مجتمعاتنا لاتعاني فقط من حرمان مادي وإنما أيضا من حرمان ثقافي لايساعد على خلق جو ملائم داخل الأسرة يشجع على القراءة، الأمر الذي يكرس انعدام تكافؤ الفرص بين أبناء هذه الفئات وأبناء الفئات الميسورة. فالأبوان في الفئات الفقيرة غالبا ما لايعرفان القراءة والكتابة، أو لديهما معرفة بسيطة وسطحية بالقراءة والكتابة، ويمارسان أعمالا لاعلاقة لها بالقراءة والكتابة، مما يجعل جو الأسرة بعيدا عن كل ما له علاقة بالكتاب والثقافة بصفة عامة، وينعكس ذلك على الطفل الذي يعيش في مثل هذا الجو، حيث لايشعر بوجود حوافز مادية أو معنوية تبعث لديه الرغبة في التعليم.

والمدرسة، رغم محاولتها توفير المساواة بين جميع الأطفال الذين يرتادونها، تظل مؤسسة غير محايدة وتميل إلى تكريس الفوارق في الواقع بين الفئات المحرومة والفئات الميسورة. وهذا ما ذهب إليه كل من " بورديو " Bourdieu و " باسيرون " Passeron في كتابهما " إعادة الإنتاج " La Reproduction وكتابهما " الوارثون" Les Héritiers عندما أكدا بأن العملية التعليمية - كما تُمارس في المجتمعات التي يسودها تمايز طبقي بين الأفراد- هي عملية مفروضة من طرف الفئات المتحكمة في المجتمع، وتستهدف إعادة إنتاج ثقافتها لتستمر في بسط سيطرتها على غالبية أفراد المجتمع. [12] وفي معرض شرحه لنظرية

---

(12) راجع: - BOURDIEU (Pierre, et PASSERON (J.C), La Reproduction Paris. Ed. Minuit, 1970.

- BOURDIEU..., les Héritiers. Paris. Minuit. 1964.

مكتبة الفكر الجديد

"**بورديو**" و "**باسيرون**" يستشهد **مصطفى حجازي** بموقف كل من "**بودلو**" و "**استبلي**" في كتابهما "المدرسة الرأسمالية بفرنسا". بقول هذا المفكران : " عندما تفرض المدرسة على الجميع لغة البعض وتاريخهم وعالمهم الاجتماعي، وعندما تكبت كل العناصر التي من شأنها أن تسمح للآخرين بأن يفهموا واقعهم الاجتماعي الفعلي، فإنها لاتنتج فقط تلاميذها الممتازين وإنما تنتج أيضا تلاميذها الأغبياء ".[13]

ونتيجة لواقع الغبن الثقافي والاجتماعي لطفل الفئات المحرومة، فإن التركيب الذهني لطفل هذه الفئات يتميز بفقر في اللغة مما يجعله لايميل إلى التفكير النظري والمجرد. فالبيئة التي يعيشها هذا الطفل فقيرة ثقافيا بالنظر لأمية الوالدين، وفقيرة لغويا حيث يغيب بين أفرادها الحوار ويتم التواصل من خلال عبارات تفتقر إلى المرونة ويغلب عليها الطابع القمعي، ولاتستعمل إلا للتعبير عن مواقف معاشة في الواقع أو على شكل أوامر ونواهي. وقد لاحظ العالم "**برنشتاين**" من خلال دراسته لظاهرة الفقر اللغوي لدى أبناء الفئات المحرومة، أن اللغة التي يستعملها أبناء هذه الفئات تتميز بنوع من التصلب والقطعية، وتظل مرتبطة بالواقع المحسوس وغياب العلاقات السببية.[14]

وفي دراسة ميدانية أجرتها الباحثة "**مارتان**" على عينة من الطلبة الفرنسية الجامعيين تساءلت عما إذا كان الانتماء الاجتماعي

---

(13) حجازي (مصطفى)، المناخ الأسري الاجتماعي وتكافؤ فرص التعليم. مجلة الفكر العربي. بيروت. العدد 24 سنة 1981، ص 105-125.

(14) راجـــع : BERNESTEIN (Basil) Langage et Classes Sociales. Ed. Minuit. Paris 1975.

مكتبة الفكر الجديد

لهؤلاء الطلبة (ميسورون أو من فئة العمال) يؤثر في ميلهم للقراءة. فعندما يصل الطلبة من كل الفئات إلى مستوى واحد من التعليم الجامعي هل يستمر انتماؤهم الطبقي في التأثير فيما يخص ميلهم للقراءة؟ وتوصلت "مارتان" في دراستها إلى أن عادة القراءة لدى الوالدين تلعب دورا هاما في تحديد طبيعة علاقة الطلبة بقراءة الصحف. وبالنظر لأن عادة القراءة توجد أكثر في الأوساط الميسورة، فإن نسبة القراءة لدى الطلبة الجامعيين الذين ينتمون إلى أوساط فقيرة أقل منها من نسبة القراءة لدى طلبة الفئات الميسورة.[15]

ولعل أبرز ما يؤكد تأثير الوضعية الإجتماعية والثقافية للأسرة على تعلم الأطفال للقراءة والكتابة حالة أطفال المهاجرين في الدول الغربية. وعلى سبيل المثال أثبتت دراسات أجريت على أطفال المهاجرين في فرنسا، ولاسيما الأطفال الذين ينتمون إلى أصول مغاربية، أن هؤلاء الأطفال يعانون من تخلف واضح في دراستهم وأن نسبة فشلهم في الدراسة كبيرة بالمقارنة مع الأطفال الفرنسيين رغم أنهم يدرسون في مدارس فرنسية ومع أطفال فرنسيين.[16] وعندما يتعلق الأمر بأطفال فرنسيين ينتمون إلى أوساط عمالية ويدرسون مع أطفال مغاربيين ينتمون إلى أوساط اجتماعية مماثلة فإن فارق النجاح في الدراسة يزول، بل بينت إحدى الدراسات التي أجريت بشمال فرنسا أن نسبة نجاح الأطفال المغاربيين تفوق نسبة

---

(15) راجـــع : MARTIN (Cybele). Les etudiants lisent peu la presse. - Rev. Ecole des Parents. Fevrier 1996.

(16) راجع : BEAUCHESNE (Hervé) et ESPOSITO (José) - Enfants de migrants. P.U.F. 1981. P : 32-35.

مكتبة الفكر الجديد

نجاح الأطفال الفرنسيين الذين ينتمون إلى أوساط عمالية [17].

إن نظام العولمة، الذي تحاول بعض الدول المتقدمة فرضه على كل دول العالم، سيعمق الفوارق بين الفئات المحرومة والفئات الميسورة. والتوجهات الحالية لهذا النظام، لاسيما منها ما يتعلق بتهميش دول العالم الثالث وتبعيتها للدول المتقدمة وتكريس تخلفها الثقافي والاجتماعي من خلال تزايد معدلات الفقر والأمية فيها، ستخلق صراعا من نوع خاص بين من يعرف ومن لايعرف، وهذا الصراع سيؤدي إلى نشوب أزمات بين أهل المعرفة وبين من لاعلاقة لهم بالمعرفة. [18] وقد تكون هذه النتيجة تصديقا لنبوءة "**فولتير**" عندما سئل عن من سيقود الجنس البشري حيث أجاب : " الذين يعرفون كيف يقرأون " [19] ولكي لايكون العالم الإسلامي في صف الذين لايعرفون وبالتالي صف المهزومين في هذا الصراع فقد دعا عالم الذرة الباكستاني **عبدالقادر خان**، المشرف على برنامج باكستان النووي، الدول الإسلامية للمزيد من الإنفاق في مجال التعليم. وقال: "كنت أكرر دائما وما زلت بأن على العالم الإسلامي أن يتجه نحو الاستثمار في التعليم إذا أراد أن يسترجع هيبته المفقودة وحماه المستباح. فالتعليم هو رأس المال الذي يجب إنماؤه والسهر عليه وهو الثروة التي لاتعدلها أية ثروة في العالم " [20].

---

(17) راجع : POSTEL-VINAY (A), Enfants de travailleurs migrants.. - Rev. Education et développement. Maï 1975. N 101.

(18) المنجرة (المهدي)، العولمة الأمركة. صحيفة العلم بتاريخ 24/ 1/ 99. ص5.

(19) سالم (محمد عدنان)، القراءة أولا، دار الفكر المعاصر، بيروت. 1994. ص 38.

(20) صحيفة الحياة بتاريخ 19/ 5/ 1998. ص 6.

مكتبة الفكر الجديد

القراءة في ظل حضارة الصورة وثقافة الحاسوب :

إننا نعيش الآن ما يمكن تسميته **'بحضارة الصورة'** المتمثلة على الخصوص في التلفزيون والفيديو والمطبوعات المملوءة بالصور...، في مقابل **'حضارة الكتاب'** . وذهب البعض إلى اتهام التلفزيون بأنه من أبرز العوامل التي أدت إلى تراجع الميل للقراءة لاسيما لدى الأطفال والشباب، وإلى تراجع انتشار الكتاب باعتباره وسيلة لتعميم المعرفة بجميع أشكالها. ويبني أصحاب هذا الرأي اتهامهم على أساس أن الخطاب التلفزيوني يشكل عائقا أمام التجريد لأن الصورة تنوب عن الكلام وعن النص المكتوب، وبإمكان الصورة وحدها أن تعبر حتى عن المشاعر والعواطف من خلال ما يصدر عنها من حركات وإيماءات وما يرافقها من أصوات. ولكون التلفزيون - في نظر أصحاب هذا الرأي - يعتمد على الصورة والحركة فإنه يميل إلى اقتصاد الكلام، بل قد يشكل الخطاب التلفزيوني أحيانا دعوة واضحة للصمت يتجلى على الخصوص في صمت المشاهد (لاسيما الطفل) وهو يتابع ما يبثه التلفزيون.[21]

إن طرح موضوع ' حضارة الصورة ' في مقابل ' حضارة الكتاب ' قد يفهم منه وكأن الصورة حلت محل الكتاب أو النص المقروء، وبالتالي فإنه لم تعد هناك نفس المبررات للقراءة كما كان الأمر في السابق. والواقع إن مزاحمة الصورة للكتاب أمر لايمكن تجاهله. فالصورة توجد في كل مكان، إنها تقتحم فضاءاتنا المختلفة : نراها في المنزل من خلال التلفزيون، وفي الشارع من

(21) نورالدين (محمد عباس) مرجع سابق ص 45 - 55.

مكتبة الفكر الجديد

خلال الإعلانات وملصقات الجدران، وفي المجلات والصحف التي تمطرنا بالمزيد من الصور الملونة وغير الملونة... بل أصبحت الصور تحتل مساحة هامة حتى في الكتب المدرسية لاسيما المخصصة للمراحل الأولى من التعليم.

إذن إن السؤال الذي يطرح الآن هو: **كيف يمكن للكتاب أن يتعايش مع حضارة الصورة**، أو بعبارة أخرى هل تراجعت أهمية القراءة أمام تقدم تقنيات الإعلام البصري؟ للإجابة على هذا السؤال نشير في البداية إلى أن انتشار التلفزيون وتقنيات الإعلام البصري الأخرى، لم يمنع من تزايد صدور الكتب والمجلات والصحف وغيرها من المطبوعات. بل ربما كان من شأن انتشار الصورة في حياتنا أن نعيد النظر في تقنيات الكتابة والطباعة بحيث تمارس هذه التقنيات بكيفية تأخذ بعين الاعتبار المكانة التي أصبحت تحتلها الصورة في حياة الإنسان. فليس من باب الصدفة أن صحفنا، التي كانت إلى عهد قريب، تعتمد اعتمادا قليلا على الصور، أصبحت الآن أكثر لجوءا إلى الصور التي ترفق بالنصوص، مما يزيد من رغبة القارئ في قراءة النص ويزيد من تشويق النص للقارئ. بل حتى النصوص المكتوبة، سواء في الكتب أو الصحف أو المجلات...، أصبحت تقطع إلى فقرات لكل منها عنوان يختصر المعاني المشار إليها في النص، بحيث يكون تقطيع النص إلى فقرات بمثابة تهوية للنص ككل يتيح للقارئ أن يأخذ قسطا من الراحة قبل متابعة القراءة، أو أن يتوقف عند فقرة ما ليكمل قراءة النص فيما بعد. بل حتى طباعة النص أصبحت تراعي دور العين في قراءة النص وفهمه، كأن تطبع أسماء الأعلام بأحرف بارزة أو متميزة وكذلك العبارات الرئيسية كأقوال المفكرين والمختصين

مكتبة الفكر الجديد

الذين يستشهد بهم في سياق النص.

إن هذه التعديلات في كتابة النصوص وطباعتها فرضت نفسها بفعل التطور الذي شهده الإعلام البصري والمتميز بحضور واضح للصورة. فلم يعد مألوفا الآن أن تقدم النصوص للقارئ في صفحات مطولة، لاتقطيع فيها، ولاعناوين فرعية، وليس فيها إبراز للعبارات والأسماء التي تساعد القارئ على فهم النص. (22)

وهناك معطى آخر يجب أخذه بعين الاعتبار في تعاملنا مع النصوص، ألا وهو معطى الحاسوب أو " الكومبيوتر " الذي ينتشر بسرعة في مجتمعاتنا، حتى أن البعض يتحدث عن ظهور ثقافة جديدة تتجاوز حضارتي الكتاب والصورة وهي **"ثقافة الشاشة"** (شاشة الحاسوب) Culture de l'écran. فبعد أن كان على المثقف أن يحتفظ بأكبر قدر ممكن من المعلومات ليستطيع استحضارها وتوظيفها في مناسبات مختلفة... أصبح الآن في غنى عن بذل مثل هذا المجهود إذ ما عليه سوى تخزين هذه المعلومات في الحاسوب، ويقوم الحاسوب باستحضارها للمثقف متى أراد. وعلى الرغم من أننا نفقد، في تعاملنا مع الحاسوب، متعة الاحتكاك بصفحات الكتاب من خلال لمسها وتصفحها، إلا أن الحاسوب - وهو يختزن الكثير من المعلومات يعيدنا من جديد إلى القراءة، إذ أنه يتيح لنا الاطلاع على ما نطلبه منه من معلومات لتوظيفها حسب احتياجاتنا، وهي معلومات سبق لنا أن

---

(22) راجع : BARBIER BOUVET (JF), Lire la page comme une image : in : Les entretiens - nathan Acte 3. Ed. Nathan Paris 1993. P : 225 - 238.

مكتبة الفكر الجديد

قرأناها وقررنا تخزينها في الحاسوب بالنظر لأهميتها، ولقناعتنا بأننا قد نحتاج إليها في المستقبل. لذا فلا داعي للتخوف من أن انتشار الحاسوب، وبالتالي تقنيات المعلوماتية Informatique، سيقلل من تداول الكتاب، ويقلص من الميل للقراءة.

إن النص الذي يختزنه الحاسوب يقدم إلينا من خلال شاشة الحاسوب، وهي موضوع محايد لاتزودنا بأية معلومات عن النص قبل قراءته. أما الكتاب فيمكن أن يتيح لنا التعرف بصفة عامة على بعض المعلومات المتعلقة بمضمون الكتاب قبل قراءته وذلك من خلال معرفتنا باسم المؤلف، واسم دار النشر، وسنة ومكان النشر، وصورة الغلاف، واسم مقدم الكتاب، ولائحة المراجع وحجم الكتاب... إلخ، كل ذلك من شأنه أن يجعلنا نألف الكتاب قبل قراءته، أو على العكس من ذلك نكون فكرة سلبية عن الكتاب دون أن نقرأه.

وهكذا فإن حضارة الصورة وثقافة الحاسوب لن تقضي على حضارة الكتاب وإن كانت ستفرض بعض التعديلات على كيفية طباعة النصوص وتقديمها بحيث تقرأ في نفس الوقت كنصوص مكتوبة وكصور، أو **"تقرأ الصفحة كصورة"**. (23)

لكي تنتشر القراءة في مجتمعاتنا :

هناك **شرط أول** وضروري لانتشار القراءة وهو توفر مناخ اجتماعي عام يسمح بحرية الرأي وتعدد الاختيارات السياسية والفكرية، على مستوى الأفراد والجماعات. ومما يؤكد ذلك أن

(23) نفس المرجع السابق. 231.

مكتبة الفكر الجديد

موزعي وبائعي الكتب يدركون هذه الحقيقة من خلال ممارستهم الواقعية. فهم يتوقعون أن ينعكس الانفراج الاجتماعي واعتماد التعددية الفكرية والسياسية في أي بلد على توزيع وانتشار الكتاب، بل إنهم يستبشرون خيرا عند حدوث مثل هذا الانفراج الذي يعتبرونه شرطا أساسيا لزيادة مبيعاتهم من الكتب، ويدركون أن الكتب القائمة على الاجترار والخالية من أي فكر نقدي لم تعد تستهوي القارئ وغير مؤهلة للانتشار الواسع.[24]

والشرط الثاني لتنمية القراءة في مجتمعنا يقتضي أن نعيد النظر في مناهجنا التعليمية وأساليب التعليم وعلى الخصوص الكتب المدرسية، بحيث يكون من أبرز أهداف العملية التعليمية ككل هو أن تصبح القراءة بالنسبة للجميع هواية ممتعة تبلغ درجة الحاجة الضرورية. وعلى سبيل المثال إن الكتاب المدرسي المتداول في مدارسنا أبعد ما يكون عن إثارة متعة القراءة لدى الطفل، فهو كتاب ممل ويتجاهل الرغبات الآنية للطفل، ويتعامل معه من خلال مقولات لاتتناسب مع حاجات الطفل ودوافعه ومستواه العقلي. كما أن أسلوب التعليم ما يزال في معظمه يعتمد على التلقين والحفظ وأحيانا يعتمد التخويف والتهديد بل وحتى العقاب. وقلما نأخذ بعين الاعتبار، سواء في الكتاب المدرسي أو في تعاملنا مع هذا الكتاب، رغبات الطفل واهتماماته. وقد يكون من المناسب في هذا المجال الإشارة إلى تجربة "**آن سوليفان**" Ann Sullivan الفريدة التي استطاعت أن تعلم "**هيلين كيلر**" Helen Keller

---

(24) تصريح للناشر «روحي البعلبكي» مدير عام دار العلم للملايين. صحيفة الاتحاد الاشتراكي المغربية بتاريخ 2/ 5/ 1995. ص12.

مكتبة الفكر الجديد

القراءة والكتابة رغم أن هذه الأخيرة لم تكن تسمع أو ترى أو تتكلم. ففي اليوم الأول استطاعت " كيلر " أن تتعلم كلمتين لهما معنى بالنسبة لها كطفلة وهما: « DOLL و CAKE لعبة وحلوى». وخلال بضعة أسابيع تعلمت «كيلر» قراءة أربعمائة كلمة رغم فقدانها لقدرات السمع والبصر والكلام. وتنتقذ "آن سوليفان" الأساليب التقليدية لتعليم القراءة التي كانت سائدة في عصرها [سنة 1887]. وتقول : " إن هذه الأساليب تبدو وكأنها تقوم على أساس الافتراض بأن الطفل كائن غبي وعلينا أن نعلمه كيف يفكر " [25]. ولو أن مربية " **هيلين كيلر** " اعتمدت في تعليمها لطفلتها أسلوب تفكيك الكلمات والجمل انطلاقا من تعابير لامعنى لها تشعر الطفل بالملل ولاتثير فيه الرغبة في المعرفة وأبعد ما تكون عن اهتماماته وقدراته كتعبير " ضرب المعلم التلميذ" و"أكل الولد التفاحة " وغيرها من التعابير المماثلة التي كثيرا ما تكررها كتب القراءة على مسامع أطفالنا في المراحل الأولى من الدراسة، لما توصلت إلى ما توصلت إليه مع طفلتها، ولما استطاعت أن تخرجها من عزلتها المفروضة عليها.

إن تجربة " **هيلين كيلر** " الفريدة تبرز كيف أن الكلمة لاتظل محصورة بمعناها المحدود، وإنما هي بالنسبة للقارئ أكثر من رمز لارتباطها بتجاربه الماضية وأفكاره وشخصيته بصفة عامة. إن الكلمة المقروءة أداة تواصل تسمح لنا بأن نتفاعل مع الآخرين، ونقاسمهم - من خلال المشاركة الوجدانية - مشاعرهم وخبراتهم

---

(25) راجع : BETTELHEIM (Bruno), et ZELAN (Karen), L'enfant et la lecture Ed. Robert - Laffont. Paris 1983. p. 35-37

مكتبة الفكر الجديد

والمواقف التي يتعرضون لها. وفي هذا يقول " **لوبرو** " : «أن القراءة تعني الدخول في عملية تواصل مع العالم الداخلي للآخرين : مع أفكارهم وعالمهم الخيالي ومشاعرهم». (26)

وفي هذا الصدد تشير " **كارين زيلان** " في تقديمها للبحث المشترك الذي أجرته مع "**برونو بتلهايم**" إلى حالة طفلة صغيرة كانت تعالجها من " إنطواء طفولي " Autisme infantile حيث طلبت من الطفلة اقتراح الكلمات التي ترغب في أن تتعلمها لتكون محور الجمل التي ستستعملها " **زيلان** " في عملية التعلم. وكان من الطبيعي أن تختار الطفلة أسماء الأشخاص الذين تتعامل معهم داخل أسرتها ويحتلون مكانة هامة في حياتها. وكتبت " **زيلان** " أسماء هؤلاء الأشخاص على قطع من الورق المقوى. وبعد مدة وضعت أم الطفلة مولودا جديدا لم تتقبل الطفلة مجيئة بارتياح. وكتعبير عن عدم ارتياحها لمجيء أخيها أخذت الطفلة الورقتين اللتين كتبت عليهما كلمتي " بابا " و " ماما " ورمتهما في سلة المهملات. وتقول " **زيلان** " بأن أول رد فعل لها كأن بأن استرجعت الورقتين، واستنتجت بأن الطفلة لابد وأن تكون قد قرأت هاتين الكلمتين بصمت، وإلا كيف استطاعت أن تختارهما من بين حوالي عشرين كلمة أخرى. (27)

وقد قام باحثان عربيان، بتكليف من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، بدراسة عينة من كتب القراءة المتداولة في مرحلة

---

(26) راجع : LOBROT (Michel), Lire. ESP 1976 Cité par: BORDERIE (René), Le métier d'élève. Hachette Paris 1991. p : 88

(27) راجع : BETTELHEIM (B), et ZELAN (Karen), op.cit. p 9-1

مكتبة الفكر الجديد

التعليم الابتدائي في أربع دول عربية (مصر، العراق، السعودية، تونس). ومن بين النتائج التي توصلا إليها أن كثيرا من الموضوعات التي تتناولها هذه الكتب تعتمد على طريقة السرد غير المشوق، وتميل إلى الأسلوب الإنشائي كثير اللفظ قليل المعنى... وأن المحفوظات والأناشيد كثير منها لايستثير اهتمام الطفل ويشوقه إلى حفظه... وأن بعض موضوعات الكتب موضوع الدراسة تبدو أعلى من مستوى التلاميذ... كما أن الكتب المدروسة تختلف في درجة قدرتها على تنمية العمليات العقلية والمهارات السلوكية للطفل، حيث أن كثيرا من موضوعاتها لايستثير تفكير الأطفال ولاينمي خيالهم.[28]

وتشويق الطفل بالقراءة يبدأ قبل المرحلة الدراسية في رياض الأطفال حيث تقدم للطفل أولا كتب تحتوي على صور ملونة، ثم كتب تحتوي على كلمات بسيطة وذات معنى واضح. وتوفير الكتاب المناسب للطفل في هذه المرحلة يلعب دورا هاما في تشويق الطفل بالقراءة، حتى إن **هشام شرابي** يعتبر " **أن إنتاج الكتب الخاصة بأطفال ما قبل الدراسة وإنتاج الكتب الخاصة بطلاب الجامعات هما على قدر واحد من الأهمية**".[29]

إلا أن توفر الكتاب الذي يحبب الطفل بالقراءة ليس كافيا في حد ذاته ما لم يتوفر المعلم الذي يهوى القراءة ويرى فيها متعته

---

(28) دمعة (محمد ابراهيم) ومرسي (محمد منير)، الكتاب المدرسي ومدى ملاءمته لعمليتي التعلم والتعليم في المرحلة الابتدائية. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. وحدة البحوث التربوية، تونس 1982. ص30-33.

(29) شرابي (هشام)، مقدمات لدراسة المجتمع العربي. دار الطليعة بيروت. 1991. ص 142.

مكتبة الفكر الجديد

ووسيلته الرئيسية لاكتساب المعلومات والخبرات خاصة تلك المتعلقة بمجال عمله كمربي. ولكي ينجح المعلم في مهمته التربوية والتعليمية يجب أن يكون متحمسا للعمل الذي يمارسه، ولديه قدر كاف من المعلومات المتعلقة بحاجيات الطفل ورغباته، وعلى اطلاع بالأساليب الحديثة في التربية، ويتوفر على التدريب المناسب لتطبيق هذه الأساليب. وعلى الدولة من جانبها، أن تضمن للمعلم حوافز مادية ومعنوية لتشجيعه على القيام بمهامه خير قيام، وعلى إيجاد الشروط الملائمة لنجاح الرسالة التربوية والتعليمية للمعلم.

والشرط الثالث لتعزيز القراءة لدى أطفالنا هو توفير الجو المناسب داخل الأسرة لتحفيز الطفل على القراءة بحيث تصبح إحدى هواياته الممتعة. وإذا كان تعليمنا يقوم على التلقين والحفظ ولايعطي أهمية للإقناع والفهم والتفكير والحوار، فإن الجو العام الذي يسود الأسرة غالبا ما لايساعد هو الآخر على تداول الكتاب. وهذا لاينطبق فقط على الأسر التي يكون فيها الآباء من الأميين بل ينطبق أيضا على كثير من الأسر التي يعرف فيها الآباء القراءة والكتابة أو توصلوا إلى درجات علمية متقدمة. إن الجو العام الذي يسود الأسرة في مجتمعاتنا لايقوم في الغالب على الإقناع والحوار، سواء على مستوى العلاقات بين الأبوين، أو على مستوى العلاقات بين الآباء والأبناء، أو على مستوى العلاقات بين الأبناء أنفسهم. والاختلاف في الأفكار والمواقف أمر غير مرغوب فيه. وبذلك يفقد الاتفاق في الرأي معناه وقيمته ويتحول إلى موقف شكلي أبعد مايكون عن الاقتناع والحوار. فهامش الحوار في أسرنا جد محدود إن لم يكن غائبا في كثير من الحالات، وفي جو يسوده الموقف

مكتبة الفكر الجديد

الوحيد، والرأي الوحيد، والكلمة الوحيدة... لامجال فيه للكتاب ولامجال فيه للآراء والأفكار المختلفة. (30)

وقلما يتواجد الكتاب في منازلنا بشكل يتيح لجميع أفراد الأسرة تداوله واستشارته في بعض المواقف. ونادرا ما نجد في منزلنا مكانا مخصصا للكتب، بل إن البعض يكتفي بأن يخصص ركنا من غرفة الاستقبال ليضع فيها بعض الكتب المغلفة تغليفا أنيقا وبألوان جذابة. وإذا ما حاولنا تصفح هذه الكتب ربما نفاجأ بأن صفحات بعضها ما زالت ملتصقة ببعضها البعض مما يؤكد أنها لم تقرأ حتى الآن من طرف أي إنسان ووضعت في غرفة الاستقبال للزينة كغيرها من قطع الأثاث.

وتحت ضغط هاجس التخوف من المستقبل، والرغبة في إعداد الأبناء للنجاح في الحياة، يحرم معظم الأطفال في مجتمعنا من متعة القراءة، ليعيشوا في شبه عزلة تحول بينهم وبين الاطلاع على الخبرات والمعارف المتنوعة. ولايكتفي المعلمون بشحن أذهان التلاميذ طيلة السنة بأسلوب تلقيني بعيد عن إثارة اهتمامهم وفضولهم بل إنهم يلزمون التلاميذ بواجبات مدرسية يجب إعدادها في المنزل، أي على حساب الوقت الذي يمكن فيه للتلميذ أن يمارس بعض هواياته. ويذهب بعض الآباء، تحت تأثير هذا الهاجس، إلى إلزام أبنائهم بمتابعة **دروس خصوصية** في المنزل أو خارجه لتعزيز فرص نجاحهم في الامتحانات، الأمر الذي يجعل الأطفال يشعرون بالإرهاق والملل. وهكذا يجد الأطفال أنفسهم محاصرين داخل المدرسة وخارجها ولايجدون الفرصة الكافية

(30) حجازي (مصطفى)، مرجع سابق، ص 105-125.

مكتبة الفكر الجديد

للتواصل ولتنمية بعض الهوايات التي تشعرهم بالمتعة والفرح. ومنذ أكثر من خمسة قرون قال المفكر الفرنسي "**مونتاني**" : "**إن الطفل ليس وعاء نملأه، وإنما هو نار نشعلها**" ، فلايكون همنا الوحيد سواء داخل أسرنا أو في مؤسساتنا التعليمية هو حشر ذهن التلميذ أو الطالب بمعلومات ينسى معظمها - إن لم يكن كلها - بعد انقطاعه عن الدراسة. فالثقافة، كما عرفها البعض، " هي ما تبقى لدى الفرد بعد أن يكون قد نسي كل شيء " [31]. وإذا استطعنا أن نغرس في نفوس أبنائنا منذ طفولتهم متعة القراءة فإننا سنؤهلهم ليكونوا مثقفين حقيقيين بثقافة حية وليس مجرد «أوعية» تملأ وتفرغ من معلومات لاتترك أي أثر في تفكيرهم وسلوكهم ونظرتهم إلى الحياة.

دور الحكومات في تشجيع القراءة :

عندما نتكلم عن دور التعليم والأسرة في انتشار القراءة فإن مثل هذا الدور لايمكن له أن يمارس بكيفية سليمة وجدية ما لم تعمل الدولة على **تعميم التعليم** وتتخذ مبادرات لتشجيع القراءة من خلال أجهزتها المختلفة لاسيما منها الأجهزة الثقافية والإعلامية. إن تشجيع تأليف ونشر الكتاب لايمكن أن يتم استنادا إلى جهود فردية معزولة. ومعاناة المؤلفين والكتاب مع النشر خير دليل على ذلك. وهنا تتجلى وظيفة وزارات الثقافة التي عليها أن لاتتحول إلى مجرد جهاز لتسطيح الفكر بترويجها لنموذج معين من الأفكار والمواقف، وتكون مجالا يتيح لكل المبدعين والمفكرين لكي

---

(31) راجـــــع : DE CLOSETS (François), Le bonheur d'apprendre, Comment l'assassine Seuil.. Paris 1996. P : 40-43.

مكتبة الفكر الجديد

ينشروا إنتاجاتهم وإبداعاتهم، بل تشجعهم بكل الوسائل للمزيد من الإنتاج والإبداع.

وتقع على وزارات الثقافة - بوجه خاص - العمل ليس فقط على تشجيع نشر الكتاب، وإنما أيضا على تقريب الكتاب من أفراد المجتمع بجميع شرائحهم، وذلك من خلال إحداث المكتبات العمومية في مختلف أرجاء المجتمع، وتنظيم معارض الكتاب وحملات للقراءة يستفيد منها حتى الأفراد الذين يتواجدون في مناطق نائية. ولاتقل مسؤولية وزارات التعليم عن مسؤولية وزارات الثقافة، إذ عليها أن تجتهد في تحبيب التلاميذ والطلبة بالقراءة من خلال الأنشطة الثقافية والترويحية التي تقوم بها المؤسسات التعليمية وتشجع تنظيم هذه الأنشطة، وتوفر الإمكانات البشرية والمادية للقيام بها في أحسن الظروف. هذا بالإضافة إلى اتخاذ إجراءات من طرف الحكومات تستهدف تشجيع القراءة مثل إلغاء الرسوم الجمركية على الكتب والمطبوعات وتخفيض الرسوم البريدية عليها، ودعم استيراد الورق المستخدم في الطباعة، وتقديم المساعدات للصحف والمجلات... إلى غير ذلك من المبادرات التي تعكس اهتمام الدولة بمستقبل مواطنيها والمساهمة في الرفع من مستوى حياتهم وطموحاتهم.[32]

وللإعلام دور لايقل في أهميته عن دور وزارات الثقافة والتعليم، فبانفتاح الإعلام على الرأي الآخر وعلى الأفكار والمواقف المختلفة، يساهم في تشجيع القراءة باعتبارها وسيلة

---

(32) راجع : STAIGER (Ralph), les chemins de la lecture. UNESCO 1979 P : 33-34.

مكتبة الفكر الجديد

للتعرف على مختلف الآراء والأفكار، بل يمكن للإعلام أن يحفز الكتاب والمبدعين من خلال إبرازه لإنتاجاتهم والتعريف بها وإثارة الحوار حولها.

وعلى المستوى التوجيهي على الإعلام أن يشجع على القراءة، سواء في البرامج المخصصة للأطفال، أو البرامج الموجهة للآباء والأمهات، بتقديم نماذج عملية تؤكد على القراءة كمصدر لاغنى للإنسان عنه للحصول على المعرفة بجميع أشكالها وفي مختلف ميادين الحياة، وليحتل الكتاب مكانه في فضاء الأسرة ويتداول من طرف جميع أفرادها ولايظل مجرد أداة جامدة للزينة، بل وسيلة لإثارة الحوار وتعميق الرغبة في العلم والمعرفة.

وهكذا، وكما يقول " **فوكامبير** " : «**إن المعركة من أجل القراءة هي في نفس الوقت معركة من أجل الديمقراطية**» [33]، على اعتبار إننا بتوفير الظروف الملائمة لانتشار القراءة في المجتمع فإننا نتيح للأفراد الإطلاع على أفكار ورؤى وتجارب مختلفة، وبذلك نعدهم للتعايش بسلام رغم اختلاف أفكارهم ومواقفهم، وبالتالي نعدهم لممارسة الديمقراطية وتمثل قيمها التي تقوم في الأساس على التسامح وعدم التطرف والتسليم بشرعية الإختلاف، ونعدهم لحياة نفسية متوازنة ومنتجة، وبذلك نحقق الظروف الملائمة للصحة النفسية والاجتماعية. وهذا ما أكده الطب النفسي الذي أثبت بأن «**الديمقراطية عامل استقرار نفسي، وإحدى ضمانات الصحة الانفعالية**» [34]. وفي هذا السياق تكون

---

(33) راجع : FOUCAMBERT (Jean), Op.Cit.

(34) زيعور (علي)، التحليل النفسي للذات العربية. دار الطليعة. بيروت، 1977. ص 18.

مكتبة الفكر الجديد

المعركة من أجل الديمقراطية هي أيضا معركة من أجل التغيير. فالقراءة ستؤدي إلى الوعي الذي سيتسلح بالفكر النقدي المؤدي إلى تغيير الواقع وتجاوز سلبياته. وفي هذا يقول "**هشام شرابي**" بأنه " لابد من الانتباه إلى دور القراءة في تحرير الفكر، وإلى الهم الأساسي لأي نظام قائم يبغي حماية نفسه من التأويلات أو التفسيرات النقدية التي تؤدي إلى الإدراك والفهم. وهكذا يتم تحرير الفكر وفقا لهذا التسلسل : القراءة (التأويل)، الفهم، النقد. [35]

(35) شرابي (هشام) البنية البطركية. بحث في المجتمع العربي المعاصر. دار الطليعة. بيروت. 1987 ص 82- 83.

مكتبة الفكر الجديد

تمـــــويه
المثقف العربي وموقفه من المرأة

"إن قضية تحرير المرأة هو شعار وأداة تحرير المجتمع بكامله، إنه الطريق نحو النظام الديمقراطي الصحيح وتحقيق الحداثة الحقيقية.

هشام شرابي

مكتبة الفكر الجديد

تعتبر قضية المرأة بالنسبة للمثقف العربي، لاسيما اليساري، موضوعا شديد الحساسية لكونه يكشف التناقض الذي يعيشه المثقف العربي بين أفكاره وقناعاته الشخصية وبين الواقع المعاش الذي يضع هذه القناعات أمام امتحان صعب. فكثير من المثقفين العرب يدعون إلى المساواة المطلقة بين الرجل والمرأة، ويعتبرون، قبل ارتباطهم بالمرأة طبعا، بأن انقسام المجتمع إلى طبقات هو السبب في الوضع الأدنى للمرأة، وفي السيطرة التي يمارسها الرجل على المرأة، وذلك تمشيا مع مقولة "انجلز" : **«إن أول تناحر طبقي ظهر في التاريخ متزامن مع تطور التناحر بين الرجل والمرأة ضمن نطاق مؤسسة الزواج، كما أن الاضطهاد الطبقي الأول متزامن مع اضطهاد المرأة من قبل الرجل»** [1].

وفي الوقت الذي يتخذ المثقف العربي اليساري هذا الموقف من المرأة تراه يتعامل معها، وبكيفية غير علنية، بشكل أبعد ما يكون عن موقفه النظري. بل إن بعض القادة السياسيين والمثقفين اليساريين يحرصون أشد الحرص على أن تظل علاقتهم بالمرأة طي

---

(1) بابي (جان)، شرط المرأة في العالم المعاصر، ضمن كتاب «المرأة والاشتراكية» من تأليف مجموعة من المفكرين اليساريين، ترجمة جورج طرابشي، دار الآداب. 1973. ص 119.

مكتبة الفكر الجديد

السرية والكتمان لكي لاينكشف تناقضهم بالنسبة لهذه القضية مما قد يؤثر على موقعهم في الواقع، حتى أن بعضهم لايظهر في العلن إلى جانب امرأة، ويحاول أن يبدو دائما " جادا " لا يتحدث إلا عن " القضايا الهامة والكبرى " .. وعندما تطرح قضية المرأة على بعض هؤلاء المثقفين يبدون شعورا باللامبالاة اعتقادا منهم أن موضوع المرأة موضوع منته ولاداع لإضاعة الوقت في طرحه، وهناك من القضايا الهامة والأكثر إلحاحا من قضية المرأة تستدعي الاهتمام بها... هذا في الوقت الذي تشغل علاقتهم بالمرأة - ولو بكيفية غير معلنة - حيزا هاما من تفكيرهم وأحاديثهم ونكاتهم... ويشتكي المفكر العربي الدكتور **هشام شرابي**، وهو من أشد المدافعين عن تحرر المرأة، من أنه غالبا ما يواجه بالصمت أو عدم الرد على طروحاته من قضية المرأة العربية رغم أنه يتعمد إثارة هذه الطروحات بنوع من التحدي على أمل الحصول على ردات فعل[2].

المثقف العربي والسلطة أو ازدواجية الظاهر والباطن :

بالعودة إلى التاريخ العربي الإسلامي يتبين لنا كيف أن المثقفين العرب كانوا أمام خيارين لا ثالث لهما : إما أن يتملقوا السلطة ويكونوا أبواقا لها، وإما أن يعبروا عن أفكارهم بطريقة غير مباشرة ومغلفة لتجنب بطش السلطة. ورغم محاولة المثقفين تفادي مواجهة السلطة إلا أنهم لم ينجوا من اظطهادها. والمحن التي واجهها كل من **ابن حنبل وابن رشد والمعتزلة وأبو حنيفة ومالك والشافعي**... وغيرهم كثير، تؤكد بما لايدع مجالا للشك طبيعة الموقف الحرج الذي كان يواجهه المثقف العربي آنذاك. ولم يعرف التاريخ العربي

(2) صحيفة القدس العربي. حوار مع هشام شرابي، 22/ 7/ 1996، ص9.

مكتبة الفكر الجديد

مرحلة سمح فيها للمثقفين التعبير بحرية عن أفكارهم وقناعاتهم، بل إن الجو العام - الفكري والسياسي - غالبا ما كانت تسوده عقلية التآمر والشك. فحتى المثقف المؤيد للسلطة كانت تكفيه وشاية كاذبة ليتحول إلى عدولها، وقد تعرضه مثل هذه الوشاية إلى أقصى العقوبات. وهذا ما أطلق عليه زميلنا الدكتور **محمد سبيلا** عبارة "**الهولوكوست الثقافي العربي**" [3].

ونتيجة لهذا الجو المشحون بالخوف والدسائس وعقلية التآمر... سادت ثنائية الظاهر والباطن، العامة والخاصة أو الراسخون في العلم... وأصبح الاختلاف في الرأي غير وارد، فالرأي هو رأي الحاكم، ومن خالف رأي الحاكم، حتى في الأمور التي لاعلاقة لها بالسياسة وتدبير شؤون المجتمع فهو "مشاغب ومخل بالأمن" !!. أما تغيير الحاكم فلم يكن يتم في الغالب إلا بموته أو الإطاحة به عن طريق التآمر وبصفة خاصة تآمر أقرب المقربين إليه.

وفي مثل هذا المناخ المخيف كان على المثقف، وهو يعبر عن أفكاره، أن يلتزم الحذر الشديد كما لو كان يسير في حقل ألغام، لأنه معرض لكل أنواع الاضطهاد، سواء من طرف الحاكم والمحيطين به أو من طرف العامة التي يمكن أن تتدخل تحت ستار "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر". ولفهم المواقف الحقيقية للمثقف العربي في تلك الفترة كان لابد من اللجوء إلى التأويل لمعرفة ما يعلنه المثقف وما يبطنه. والتأويل يفتح الباب واسعا أمام

(3) سبيلا (محمد)، الهولوكوست الثقافي العربي، صحيفة العلم، الرباط بتاريخ 14/ 4/ 1996 ص12.

مكتبة الفكر الجديد

تعدد التفسيرات، وهذا ما جعل بعض القضايا الفكرية التي أثيرت منذ مئات السنين لا زالت تثير جدلاً بين عدد من المثقفين العرب المعاصرين.

هذه الظروف كان لها تأثير بالغ في تكوين شخصية الرجل العربي التي تميزت بأنها **شخصية استبدادية** تتعامل مع الآخرين على أساس عمودي، أي إما أن تمارس سلطويتها على الآخرين أو تخضع لسلطة الآخرين. وكما يقول " **إريك فروم**" : " إن العالم بالنسبة للشخصية السلطوية مؤلف من أناس ذوي قوة ومن أناس بلا قوة. مؤلف من الأعلى والأدنى، وهي - على أساس نزعاتها الماسوشية السادية - لاتمارس إلا الهيمنة أو الخضوع لاالتضامن على الإطلاق" .

ويقول " **فروم** " : " إن الشخص السلطوي يعجب بالسلطة ويميل إلى الخضوع لها لكنه في الوقت نفسه يكون هو نفسه سلطة، ويكون عنده آخرون يخضعون له ". ويضيف بأن السلطوي تثيره القوة إما لكي يخضع لها أو ليمارسها على من يعتبرهم أضعف منه[4].

والمرأة وكذلك **الطفل والفقير** مهيأون لكي يمارس عليهم الاستبداد من طرف الرجل السلطوي (الزوج، الأب، الحاكم) لوضعهم الأدنى (البيولوجي والاجتماعي والاقتصادي...) الذي يوجدون فيه بالمقارنة مع الرجل. وفي هذا الشأن يقول **هشام شرابي** : " **إن الاضطهاد في مجتمعنا هو على ثلاثة أنواع** :

---

(4) فروم (إريك) الخوف من الحرية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. 1972. ص 134-141.

مكتبة الفكر الجديد

اضطهاد الفقير، واضطهاد الطفل واضطهاد المرأة "[5].

مفارقة الحب الكبرى أو ثنائية القلب والعقل :

وعلى صعيد العاطفة كان الرجل العربي في وضع لايختلف عن وضعه في علاقته بالسلطة. فهو من ناحية يحب المرأة ويهيم بها ومن ناحية أخرى عليه أن يلتزم بالقيم والعادات السائدة ولو أدى به إلى التضحية بعاطفته. وبعبارة أخرى إن علاقة الرجل بالمرأة في المجتمع العربي كانت مرهونة بثنائية القلب والعقل، أو ثنائية عاطفة الحب ومؤسسة الزواج. وغالبا ما تنتهي هذه الثنائية لصالح العقل أي لصالح مؤسسة الزواج التي تجسد قيم المجتمع وتقاليده وأعرافه. ورغم ما تتعرض له عاطفة الحب من قمع وإحباط، ورغم ما تؤدي هذه العاطفة بصاحبها إلى الخروج عن القيم الأخلاقية والاجتماعية، إلا أن الأشخاص الذين تستبد بهم يحظون بالإعجاب والتعاطف معهم من طرف عامة الناس الذين يتتبعون أخبارهم ويتداولون مغامراتهم ويحفظون أشعارهم إن كانوا من الشعراء...

ويحلل **جلال صادق العظم** هذه الظاهرة في كتابه " **في الحب والحب العذري** " حيث يشير إلى أن قصص الحب العذري تصور الزوج وكأنه شخصية شريرة، " دميم أو أعور أو فظ قاسي القلب يقف حائلا بين لقاء العشيقين "[6] أي اللقاء بين العاشق العذري وبين المرأة المتزوجة التي يهيم بها. وعلى الرغم من أن الزوج

---

(5) شرابي (هشام)، مقدمات لدراسة المجتمع العربي. ص 112.

(6) العظم (جلال صادق) في الحب والحب العذري، دار العودة، بيروت، 1974، الطبعة الثانية، ص 82.

مكتبة الفكر الجديد

المخدوع يمثل الشرعية المجتمعية باعتباره يمثل رب الأسرة التي يقوم على أساسها استمرار المجتمع، فإننا نتعاطف مع العاشق الذي يمثل خروجا واضحا عن القيم الأخلاقية والاجتماعية ونتحامل على الزوج. إن قصص الحب العذري تحدثنا كثيرا عن **قصة جميل بن معمر وحبيبته بثينة، وقصة المجنون وحبيبته ليلى، وقصة عروة بن حزام وحبيبته عفراء**... إلا أنها قلما تحدثنا عن أزواج بثينة وليلى وعفراء... رغم أنهم أزواج وقعوا ضحية عاشقي زوجاتهم الذين يجب وصفهم، من الناحية الاجتماعية والأخلاقية، بأنهم زناة ومنحرفون.

إن ثنائية الزوجة والعشيقة التي تتحدث عنها قصص الحب العذري لازالت راسخة في شخصية الرجل العربي في تعامله مع المرأة، إنه يريدها - بعقله - زوجة مستقيمة، وأما لأبنائه، تجيد الطبخ والاهتمام بالمنزل...، وفي مقابل ذلك يرغب فيها بعاطفته كعشيقة يقيم معها علاقة ولو غير شرعية خارج مؤسسة الزواج. إنه يريدها كما يقول أحد الناقدين الساخرين : " **رابعة العدوية** " في النهار و " **مادونا** " في الليل. وإذا كانت الزوجة مثار شك الرجل العربي فلأنه يفترض أنها يمكن أن تكون زوجة له وفي نفس الوقت عشيقة رجل آخر. وهذا هو سبب غيرة الرجل المبالغ فيها على زوجته، في نفس الوقت الذي لايتورع هو نفسه من أن يقيم علاقة غير شرعية مع امرأة أخرى.

الأنوثة والذكورة كواقع بيولوجي :

لا أحد يجادل بوجود فوارق بيولوجية بين الرجل والمرأة، وإن كان البعض يحاول أن يحمّل هذه الفوارق دلالات نفسية واجتماعية... في مقابل محاولة البعض الآخر التقليل من أهمية هذه

مكتبة الفكر الجديد

الفوارق وعدم تحميلها أية دلالات أكثر من أنها مجرد فوارق بيولوجية قد توجد بين الجنس الواحد، أي بين الرجال أنفسهم. وقد كتب الكثير عن هذا الجانب في مختلف العصور والمجتمعات، وأثيرت نظريات ومواقف مختلفة تتباين في تطرفها واعتدالها. إلا أن السؤال الأكثر إثارة للجدل فيما يخص الأنوثة والذكورة هو : **هل الأنوثة البيولوجية تنتج عنها شخصية أنثوية من النايحة النفسية والاجتماعية، أي شخصية سلبية تابعة ومستسلمة وخاضعة... وهل الذكورة البيولوجية تنتج عنها شخصية مقتحمة، سلطوية، مهاجمة...؟** وينطلق هذا التساؤل من طبيعة عضوي التناسل لدى الذكر والأنثى ووظيفتهما، حتى أن " **فرويد** " تحدث كثيرا عن " عقدة القضيب " أو " عقدة الخصي " "Complexe de Castration " لدى الأنثى أي رغبتها اللاشعورية في أن تتوفر على عضو تناسلي مثل الرجل [7]، واعتبر هذه العقدة هي السبب في شعور المرأة بالدونية إزاء الرجل، وشعورها بجرح نرجسي نتيجة طبيعة عضوها التناسلي الذي يشبه الندبة أو الجرح. ..[8]

إن إضفاء الصفات الإيجابية على الرجل دون المرأة، على

---

(7) راجع على الخصوص كتب "فرويد" :
- محاضرات تمهيدية جديدة في التحليل النفسي. مكتبة مصر. القاهرة. بدون تاريخ.
Trois essais sur la théorie de la sexualité Idées.; Gallimard 1962.
La vie sexuelle. P.U.F. 1969.

(8) زوين (جوزيت)، المرأة في ضوء نظريات التحليل النفسي. ترجمة فؤاد شاهين. مجلة الفكر العربي. العددان 17-18، سبتمبر / ديسمبر 1980، ص 48.

مكتبة الفكر الجديد

أساس التمييز بين الأنوثة والذكورة بمعناها البيولوجي، تعرض لنقد شديد لاسيما من طرف النساء المدافعات عن تحرير المرأة والرجال المؤيدين لهذا التحرير. وتعزز هذا النقد نتيجة ما أسفرت عنه البحوث والدراسات في مجال العلوم الإنسانية والتي توصلت إلى عدم وجود فوارق عقلية بين الإناث والذكور، وأن الفوارق الموجودة في الواقع هي نتيجة لعوامل اجتماعية مكتسبة - أكثر منها وراثية - تختلف من بيئة لأخرى، رغم أن بعض البحوث تحدثت عن وجود بعض الفوارق النفسية بين الأطفال الذكور والإناث الحديثي الولادة لاسيما دراسة : " **إريك إريكسون** " عن مرحلة الطفولة. (9) فقد توصلت هذه الدراسات إلى أن الفوارق العقلية بين البشر موزعة توزيعا مماثلا مهما اختلف مستواهم الحضاري وسلالاتهم... بحيث نرى في أي مجتمع كان مجموعة قليلة من الأذكياء جدا ومجموعة قليلة من الأغبياء وغالبية متوسطة الذكاء (منحنى غوس (Courbe de Gauss) وتلعب الظروف الاجتماعية والاقتصادية دورا رئيسيا في الكشف عن هذه القدرات العقلية وإبرازها إلى حيز الوجود.

وإذا كانت الفوارق البيولوجية بين المرأة والرجل حقيقة موضوعية إلا أن بعض الحركات النسوية المتطرفة، لاسيما في أوربا وأمريكا، تحاول القفز على هذه الحقيقة بمناداتها بحق المرأة في الامتناع عن الحمل لكونه - حسب رأيها - يشكل عبودية بالنسبة للمرأة التي تصبح نتيجة للحمل أسيرة الزوج والأبناء وعمل

---

(9) راجـــع : ERIKSON (E), Enfant et société. Delachaux et Niestlté Newtchatel - Paris.

مكتبة الفكر الجديد

البيت. وتعتبر الباحثة الأمريكية " **شولاميت فايرستون** " Ch.Fireston من دعاة هذا الرأي حيث اعتبرت أن الوسيلة الوحيدة لتحرير المرأة هي إلغاء الأسرة والإنجاب الطبيعي البيولوجي والبحث عن أسلوب اصطناعي في الإنجاب. واعتقدت أن تبني هذا الموقف من شأنه إلغاء التمايزات الثقافية بين الأنوثة والذكورة وقطع الطريق على الإيديولوجيا التي وضعها الرجل لاستعباد المرأة.[10] وهذا ما دفع بعض أنصار هذا الاتجاه إلى المناداة بإمكان الاستغناء تماما عن الرجل في تحقيق الإشباع الجنسي حتى لايستعبد الرجل المرأة عن طريق الجنس [11].

الأنوثة والذكورة، اختلاف في إطار الوحدة والتكامل :

إن القول بتساوي المرأة والرجل من حيث الكرامة الإنسانية لاينفي حقيقة لاينكرها إلا مكابر وهي تفوق الرجل على المرأة عبر كل العصور وحتى الآن. والدراسات الأنثروبولوجية الخاصة بموضوع العلاقة بين الرجل والمرأة تكاد تجمع على أن معظم المجتمعات - إن لم تكن جميعها - تميزت، وبدرجات متفاوتة، بإقرارها بتفوق الرجل على المرأة، هذا التفوق الذي ينعكس على الأدوار التي يمارسها كل منهما داخل المجتمع. والتفوق بهذا المعنى يصبح مجرد توزيع للأدوار على اعتبار أن المرأة هي التي تنجب الأطفال وتعنى برعايتهم لاسيما في المرحلة الأولى من

---

(10) لوبيكي (جاكلك)، ثورة معرفية جديدة موضوعها المرأة. صحيفة العلم - الرباط - بتاريخ 8/ 11/ 1994. ص8.

(11) نجار (شكري)، ظاهرة انتقاص المرأة. مجلة الفكر العربي. العددان 17-18 / 1980، ص81.

مكتبة الفكر الجديد

طفولتهم. وهذا الوضع يفرض عليها البقاء مدة طويلة داخل المنزل على عكس الرجل. ويستثنى من الأنثروبولوجيين الذين قالوا بهذا الرأي العالم "**باخوفين**" Bachofen في كتابه "**حق الأم**" الذي يفترض وجود مرحلة تاريخية - ولو قصيرة - كانت فيها المرأة هي المسيطرة وهي التي ينسب لها الأبناء. إلا أن هذا الرأي يظل مجرد فرضية لم تؤيدها نتائج الدراسات الأنثروبولوجية والتاريخية بصورة قاطعة.

وقد يكون من المناسب في هذا الشأن الاستعانة بشهادة حديثة جدا لعالمة الأنثروبولوجيا "**فرانسواز ايريتيي**" تلميذة "**كلود ليفي ستراوس**" التي خلفته في إدارة "مختبر الأنثروبولوجيا الاجتماعية" والتي صدر لها أخيرا كتاب هام بعنوان «المذكر / المؤنث، فكر الاختلاف» (دار اوديل جاكوب - باريس). ترى "**فرانسواز ايريتيي**" أن "ملاحظة الاختلاف بين الجنسين هو أساس كل فكر، سواء كان تقليديا أو فكرا علميا... وأن تأويل الاحتلاف بين الذكر والأنثى كان دوما وفي كل الثقافات لصالح الأول... أما المجتمعات الأميسية Matriarcal (التي يفترض أن الأم هي التي كانت المسيطرة فيها وليس الرجل) فلم تشاهد في أي مكان من العالم"[12]. وتشكك "**فرانسواز إيريتي**" بإمكانية الوصول إلى مساواة مثالية في جميع المجالات بين المرأة والرجل".

إن شهادة "**إيريتي**" تكتسي أهمية خاصة لأنها أولا صادرة عن

---

(12) إيريتي (فرانسواز) الاختلاف بين الجنسين هو أصل التفكير، صحيفة الاتحاد الاشتراكي المغربية. الدار البيضاء، بتاريخ 15/ 12/ 96، ص7 نقلا عن صحيفة لوموند الفرنسية بتاريخ 2/ 2/ 1996.

مكتبة الفكر الجديد

امرأة، وثانيا لكونها صادرة عن عالمة لها اطلاع واسع بتاريخ الشعوب وعاداتها وتقاليدها... وتعتبر " **ايريتيي** " مثالا للمرأة التي تتقبل أنوثتها كواقع لاسبيل لتغييره أو تجاوزه مما يجعلها تختلف عن الرجل اختلافا لايقلل من قيمتها ولايزيد في قيمة الرجل. لذا يجب تحرير المرأة، والرجل أيضا، من عقدة الأنوثة والذكورة بحيث لاتشعر المرأة بنقص إزاء الرجل لكونها أنثى، ولايتعامل معها الرجل بتعال اعتقادا منه بأنه أفضل منها لأنه ذكر. فالاختلاف بين الجنسين يجب أن ينظر إليه كاختلاف وليس أكثر من ذلك، أي كاختلاف بين دورين متكاملين يتمم أحدهما الآخر لاستمرار المجتمع والنوع البشري. وللوصول إلى تحقيق هذا الهدف لابد من توفير مجموعة من الشروط (الاجتماعية والقانونية والاقتصادية والتربوية...) التي تزيل كل أشكال التمييز بين الرجل والمرأة على أساس الذكورة والأنوثة. وإذا تمكنا من توفير هذه الشروط بكيفية متكافئة أمام الرجل والمرأة فلن يبقى هناك ما يُشعر المرأة بالغبن إزاء الرجل، رغم اختلافها عنه من حيث الدور والوظيفة، وهو اختلاف سيظل قائما إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، كما لن يشعر الرجل بأفضليته على المرأة، بل سينظر إليها كمكمل له كما ستنظر هي إليه كمكمل لها. وبذلك يدرك الطرفان أنهما مطالبان بخوض نفس المعركة : معركة الكرامة الإنسانية. وقد لايشاركنا الدكتور **هشام شرابي** الرأي في القول بتفوق الرجل على المرأة. ولكن نود أن نسأل أستاذنا الكبير - وهو يعيش في الولايات المتحدة التي تتمتع فيها المرأة بأكبر نصيب من الحرية والمشاركة في الشؤون العامة - كم عدد النساء الأمريكيات المتخصصات في المجالات العلمية مقارنة بعدد الرجال المتخصصين في نفس

مكتبة الفكر الجديد

المجالات؟ قد يكون الجواب حسب بعض التقديرات هو أن نسبة النساء لاتتعدى العشرة بالمائة من مجموع المتخصصين في المجالات العلمية. أما عدد النساد الأعضاء في الأكاديمية القومية للعلوم بالولايات المتحدة فلايتعدى حسب هذه التقديرات الاثنين بالمائة [13]. وأكرر من جديد أن تفوق الرجل على المرأة لايبرر أبدا استصغارها أو احتقارها أو التعالي عليها. والتفوق بهذا المعنى ليس أكثر من اختلاف في الأدوار. وهو أبعد ما يكون عن علاقة القاهر بالمقهور، إذ كما يقول أستاذنا الدكتور **سمير نعيم** : " **حين يبخس الإنسان قيمة إنسان آخر، فإنه في نفس الوقت يبخس قيمته هو ذاته، وبالتالي تصبح حالة فقدان الكرامة والاحترام حالة معممة تصيب القاهر والمقهور في آن واحد** " [14].

ومع تقديري الكبير لأستاذنا الجليل الدكتور **هشام شرابي** إلا أننا نختلف معه في دعوته إلى " أن نصر على وجود المرأة في كل مؤتمر أو جلسة نقيمها، إن لم يكن على أساس النصف من النساء، فعل الأقل أن تكون النسبة قريبة من ذلك " [15]. إننا ندرك تماما أن أستاذنا يرمي من وراء اقتراحه هذا إلى إعطاء المرأة مزيدا من الثقة بنفسها وبعدالة مطالبها. ولكننا نخشى لو تم تحقيق هذا الاقتراح أن تتحول المرأة إلى ما يشبه قطعة الأثاث يؤتى بها لتزيين المكان وتعامل كمجرد أنثى يرغب الذكور في تواجدها

---

(13) نجار (شكري) ظاهرة انتقاص المرأة، مجلة افكر العربي، بيروت، 1980، العددان 17-18، ص 78-79.

(14) نعيم (سمير)، التكوين الاقتصادي والاجتماعي وأنماط الشخصية في الوطن العربي. مجلة العلوم الاجتماعية،الكويت، العدد 4 ديسمبر 1983.

(15) صحيفة القدس العربي، بتاريخ 2/ 7/ 1996، ص9، مقابلة مع هشام شرابي.

مكتبة الفكر الجديد

بينهم. وما يجب أن نلح على تحقيقه هو ضرورة تحرير المرأة من الجهل بفتح باب التعليم أمامها بدون أي تمييز وفي جميع مراحل التعليم، وهو شرط أساسي كي تعي المرأة حقوقها وواجباتها وكي تساهم إلى جانب الرجل في نمو المجتمع وتقدمه. أما أن تعطى المرأة نصف مقاعد البرلمان، كما تطالب بعض الحركات النسائية بذلك، رغم أن أمية المرأة (لاسيما في القرى والبوادي) في مجتمعاتنا تتعدى التسعين بالمائة أحيانا، فإن مثل هذا الإجراء لن يخدم - في اعتقادي - قضية المرأة في شيء، بل ربما سيكرس دونيتها بالنسبة للرجل، وسيجعلها في وضع لن تكون فيه قادرة على المساهمة في تحسين ظروف حياتها، لكونها لم تعد للقيام بهذا الدور الإعداد الكافي. وسيظل الباب مفتوحا أمام المرأة لتناضل إلى جانب الرجل لتنال حقوقها وفي طليعتها الحقوق السياسية...، وليكون لها وجود فعلي ومكثف في جميع المؤسسات بما في ذلك البرلمان.

ثنائية المرأة - الطبيعة، والرجل - الثقافة :

من الثابت تاريخيا وواقعيا أن المرأة أقرب من الرجل إلى الطبيعة، وأن دورها عبر التاريخ وإلى الآن جعلها وكأنها جزء من الطبيعة بينما تميز دور الرجل بتكييف الطبيعة وإخضاعها. لذا فإن الثقافة باعتبارها إضافة للطبيعة كانت نتاجا رجوليا. وسنعتمد في تعزيز هذا الرأي على بحث شيق للعالمة الأمريكية " شيري. ب. أوتنر " بعنوان " هل الأنثى بالنسبة للذكر كالطبيعة بالنسبة للثقافة، والذي نشر ضمن كتاب "المرأة، الثقافة، المجتمع"[16].

(16) المرأة والثقافة والمجتمع من إعداد : روزالدو ولامغير، بمساهمة مجموعة =

مكتبة الفكر الجديد

تميز " **أوتنر** " بين عمل الطبيعة وعمل الثقافة على اعتبار أن عمل الثقافة يتجلى على شكل تجاوز لظروف الطبيعة وتغييرها وإخضاعها. وبما أن المرأة - بحكم الدور الذي يؤهلها تكوينها البيولوجي القيام به - أقرب إلى الطبيعة من الرجل وتتصل اتصالا مباشرا بالطبيعة فإن مساهمتها في الثقافة ستظل أقل من مساهمة الرجل. وتستند " أوتنر " في تدعيم هذا الرأي إلى حجج ثلاث :

1- إن جسد المرأة ووظائفه المنهمكة وقتا أكبر في "حياة النوع" يجعلانها أقرب إلى الطبيعة، في حين تترك للرجل - بحكم تكوينه الفيزيولوجي - الحرية الكاملة لمعالجة المشاريع الثقافية.

2- إن جسد المرأة ووظائفه يضعاها في أدوار اجتماعية تعتبر بدورها في مرتبة أدنى من حيث العملية الثقافية مما هو عليه الرجل.

3- إن أدوار المرأة الاجتماعية التقليدية التي يفرضها عليها جسدها ووظائفه، تعطيها بدورها تركيبا نفسيا مختلفا يعتبر مماثلا لطبيعتها الفيزيولوجية وأدوارها الاجتماعية في قربه من الطبيعة.

وتستشهد العالمة " **أوتنر** " بعبارة لـ "**سيمون دوبوفوار**" وردت في كتابها "**الجنس الآخر**" جاء فيها : " إن الأنثى إلى حد أكبر من الرجل هي ضحية النوع " (ص60). وتقول في عبارة أخرى من نفس الكتاب : " إن الأنثى أكثر عبودية لجنسها البشري من الذكر، والجانب الحيواني من طبيعتها البشرية أكثر وضوحا " (ص239). وتلخص "**أوتنر**" موقفها قائلة : " إن جسد المرأة

= من الباحثات الأمريكيات. ترجمة هيفاء هاشم. منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي. دمشق. 1976. ص 109-138.

مكتبة الفكر الجديد

يحكم عليها بمجرد التناسل في هذه الحياة. بينما يتوجب على الذكر (أو تمنح له الفرصة) بسبب افتقاره إلى الوظائف الخلاقة الطبيعية، أن يؤكد قدرته على الخلق خارجيا أي "اصطناعيا" من خلال التكنولوجيا والرموز، وبعمله هذا يخلق أشياء دائمة نسبيا، خالدة أو متسامية، بينما تخلق المرأة مجرد أشياء زائلة - مخلوقات بشرية" (ص 121).

وإذا كانت المرأة - في نظر "**أوتنر**" تنتج بشكل طبيعي ومن داخل كيانها (عملية الولادة ورعاية الأبناء...) إلا أن الرجل مجبر على أن يباشر هذه العملية من خلال وسائل ثقافية مما يجعله أكثر قدرة على تغذية الثقافة من خلال تراكم ما ينتجه على جميع المستويات المادية والفكرية والاجتماعية. ..[17]. فالمرأة وهي تعد الطعام لأبنائها وتقوم بإرضاعهم في المرحلة الأولى من طفولتهم والسهر على رعايتهم والعناية بهم، إنها بذلك تمارس عملا طبيعيا يتناسب مع تكوينها البيولوجي. أما عندما يتعلق الأمر بإعداد الطعام كثقافة أو فن فإننا نرى الرجل هو الذي يقوم بهذه المهمة وليست المرأة. ولهذا نرى أن **الطباخين الماهرين في العالم هم من الرجال.** وهذا ما يفسر لنا أيضا كون معظم مربي دور الحضانة في العالم هم من النساء بشكل ملحوظ.

وعلى الرغم من أن المرأة أقرب من الرجل إلى الطبيعة، إلا أن دورها لايقل في أهميته عن دور الرجل باعتباره (أي دور المرأة) يمثل دورا وسيطا بين الطبيعة والثقافة، وهو الذي يعد الأبناء لكي

---

(17) نستعمل كلمة ثقافة هنا بمعناها الانثروبولوجي، أي كل ما ينتجه الإنسان من أدوات وأفكار وشعائر وعادات وتقاليد...

مكتبة الفكر الجديد

يمارسوا دورهم الثقافي داخل المجتمع من خلال مشاركتهم في مختلف العمليات الإنتاجية المادية والفكرية والاجتماعية...

نخلص من كل هذا إلى أن احتقار المرأة واستصغارها هو احتقار للرجل واستصغاره باعتبار أنهما يشكلان بنية واحدة يقوم المجتمع على أساسها، وبدون تكامل هذه البنية المكونة من الرجل والمرأة لايمكن للمجتمع أن ينمو ويتقدم. وإذا لم يتح للمرأة في مجتمعاتنا أن تساهم إلى جانب الرجل مساهمة فعالة في التنمية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، فإن تقدم المجتمع ونموه سيظل أمرا متعذر التحقيق إن لم يكن مستحيلا.

إن المطلوب الآن هو تحقيق مبدأ تكافؤ الفرص أمام الجميع، بدون أي تمييز لكي يعطي كل فرد ما لديه من إمكانيات. وفي مقدمة المجالات التي يجب أن يتحقق فيه هذا المبدأ هو مجال التعليم. فما لم يتم القضاء على أمية الرجل والمرأة فإن النهوض بمجتمعاتنا سيبقى هدفا بعيد المنال. والمرأة في مجتمعاتنا لن تمارس حقوقها وواجباتها بإلغاء نون النسوة، كما تدعو إلى ذلك بعض المدافعات على المرأة العربية، وإنما بأن توفرَ لها وللرجل على قدم المساواة كل الشروط الاجتماعية والاقتصادية والسياسية... التي من شأنها أن تفتح الباب أمام الجميع ليساهم في التنمية الشاملة للمجتمع في مختلف الميادين.

وهكذا فإن النهوض بمجتمعاتنا يتطلب تظافر جهود الرجل والمرأة، وإن نضال المرأة لممارسة دورها الطبيعي في المجتمع لن يحقق أهدافه ما لم يؤازر بنضال الرجل على اعتبار **أن معركة الرجل والمرأة معركة واحدة : معركة الكرامة الإنسانية، كرامة الرجل والمرأة على حد سواء.**

مكتبة الفكر الجديد

التمويه،
وعـــقدة اللغة الأجنبية
أو الاستعمار النفسي

«مهما حاولنا كمغاربة، لايمكننا أبدا أن
نتقن اللغة الفرنسية مثل الفرنسيين»

د. المهدي المنجرة

مكتبة
الفكر
الجديد

أن تعرف لغة أو لغات أجنبية إلى جانب لغتك القومية ليس أمرا مستحسنا فقط وإنما أصبح أمرا ضروريا، خاصة بالنسبة لأساتذة وطلبة التعليم العالي على اختلاف تخصصاتهم. أما أن يتسابق بعض المثقفين العرب إلى استعمال لغات أجنبية (الفرنسية والإنجليزية على الخصوص) حتى في اجتماعات أو لقاءات لايحضرها أي أجنبي، رغم أنهم يعرفون جيدا اللغة العربية، فهذا أمر يحتاج إلى تفسير وتحليل.

الفرنسي وحده هو الذي يمكنه إتقان الفرنسية :

إتقان لغة ما ليس مجرد معرفة التحدث بها، فحتى الحمالون في بعض الموانئ يتحدثون بأكثر من لغة، بل إن وكالات الأنباء تحدثت أخيرا عن مغترب لبناني بأمريكا اللاتينية يتحدث ب 56 لغة. إن إتقان لغة ما هو أن نعيشها من الداخل، فنتذوق فلكلورها ونكاتها وتقاليدها وطريقة ضحك أبنائها وبكائهم... وهذه أشياء، كما يقول الدكتور **المهدي المنجرة** " لاتتعلم في المدرسة، بل في الوسط الثقافي (والاجتماعي) الذي نولد فيه ". ويقول الدكتور المنجرة (وهو يعرف جيدا اللغة الفرنسية) : " أنا شخصيا أعترف - وأنا لا أفعل ذلك تواضعا - بأنه يستحيل علي، لأنني لم أولد فرنسيا، أن أتوصل في يوم من الأيام إلى تملك اللغة

مكتبة الفكر الجديد

الفرنسية..."[1]. ولنتذكر كيف أن أساتذتنا للغة الفرنسية، لاسيما في المرحلة الثانوية، كانوا يلاحظون على طريقة تعبيرنا باللغة الفرنسية - رغم أنها صحيحة من الناحية النحوية والإملائية - بأنها تنقصها الروح الفرنسية أو التفكير الفرنسي، ويطلبون منا أن نحاول التفكير بالفرنسية.

فبالنسبة للفرنسي إن الفرنسية ليست منفصلة عن الحضارة الفرنسية بجميع جوانبها الفكرية والثقافية والاجتماعية والتاريخية والفنية... أما بالنسبة لغير الفرنسي فستظل الفرنسية أداة تواصل تسمح له بالاطلاع على المنجزات الفكرية والعلمية للشعوب التي تتحدث بالفرنسية. وبالصراحة التي عهد بها **الدكتور المنجرة** يقول: **"مهما حاولنا كمغاربة، لايمكننا أبدا أن نتقن اللغة الفرنسية مثل الفرنسيين. وكل شخص غير فرنسي يوهم نفسه بأنه يستطيع أن يتقن اللغة الفرنسية مثل الفرنسيين.."**[2].

وأحيانا يدرك بعض المفكرين المغاربيين الذين يعبرون بالفرنسية مدى العزلة التي يعيشونها بعيدا عن شعوبهم وهمومها بسبب الجدار الذي يفصل بينهم وبين هذه الشعوب والمتمثل في اللغة الفرنسية التي تعلموها في ظروف خاصة لم يكن لهم يد فيها. وفي لحظة صدق مع الذات يعترف هؤلاء المفكرون بعزلتهم ويتمردون عليها ويحاولون تجاوزها. وبالمناسبة أنوه بمغاشدة الأستاذ **عبدالكبير الخطيبي** لزملائه وأصدقائه لمساعدته في تعلم

---

(1) المنجرة (المهدي)، هذا موقفي من الفرنكوفونية. صحيفة الاتحاد الاشتراكي المغربية بتاريخ 26/ 2/ 1989. ص3.

(2) استناد الفكر الآوروبي الحديث بجامعة " جورتاون " الأمريكية.

مكتبة الفكر الجديد

اللغة العربية للخروج من العزلة اللغوية المفروضة عليه. كما أذكر كيف أنه كان يعارك اللغة العربية وهو يحاضر في مناسبات عديدة، بدون أي مركب نقص، إلى أن قطع شوطا كبيرا في كسر هذا الطوق والإفلات من العزلة. ونفس التجربة عاشها مفكرون عرب مروا بظروف مماثلة. وربما شكل الدكتور **هشام شرابي** [3] مثالا حيا على العزلة التي يمكن أن يعيشها الكاتب الذي يعبر بغير لغته القومية. فشرابي، مع عدد من المثقفين العرب في بلاد الغربة، لم يشكل تيارا متميزا في الفكر العربي الحديث إلا عندما كتب بالعربية أو ترجم بنفسه كتبه من الانجليزية إلى العربية. وأعتقد أن شرابي، عندما بدأ يكتب بالعربية، اكتشف ذاته وقدراته وشعر بتفاعل حقيقي مع هموم الشعب الفلسطيني الذي ينتمي إليه وتطلعاته. ولعل الصدى الذي أحدثه كتاب له "**مقدمات لدراسة المجتمع العربي**" عندما ترجمه بنفسه إلى العربية يؤكد هذا الطرح. ويعترف هو نفسه بذلك عندما يقول في مقدمة الكتاب : "أصبحت أدرك، بفضل هذه التجربة، أن القارئ العربي قادر على استيعاب الفكر، وقبول النقد مهما كان عنيفا، إذا شعر أنه ينبثق من موقف صادق يرفض التمويه ويهدف إلى كشف الواقع على حقيقته"[3]. وما كان لهشام شرابي أن يصل إلى هذه القناعة ما لم يتواصل مع القارئ العربي مباشرة من خلال كتاباته باللغة العربية، وما لم يكسر طوق العزلة الذي كان يعاني منه قبل بدء الكتابة بالعربية.

وعندما يتحدث بعض المثقفين العرب بلغة أجنبية في اجتماع

---

(3) شرابي (هشام)، مقدمات لدراسة المجتمع العربي. الطبعة الأولى، الدار المتحدة للنشر. بيروت 1975. ص10.

مكتبة الفكر الجديد

لايوجد فيه أي أجنبي، وأحيانا في اجتماع يكتسي طابعا رسميا، يخيل إليك أنك أمام إنسان يقوم بدور المحاكاة الإيمائية mimitisme، وهو دور مهما بلغت درجة إتقانه يظل مجرد محاكاة إن لم يكن نوعا من " التمظهر " Snobisme يثير سخرية "الآخرين" الذين نحاول التباهي بمعرفة لغتهم.

التماهي بثقافة المستعمر كتعبير عن تبخيس الذات :

لعل أخطر الآثار التي خلفها الاستعمار الغربي في نفوس الشعوب التي استعمرها هو شعور الفرد في هذه الشعوب بالدونية إزاء المستعمر، بحيث يتوهم أن تخلصه من شعور الدونية والنقص لايتم إلا من خلال محاولة التشبه بالمستعمر (من حيث لغته، ولباسه، وتفكيره، ونمط حياته بصفة عامة...)، وبالتالي الخروج من جلده والتنكر لهويته الحقيقية وللجماعة التي ينتمي إليها. وقد اهتمت مدرسة التحليل النفسي بتحليل ما أسمته **بظاهرة التماهي بالمعتدي أو المتسلط**[4] أو ما يمكن تسميته ظاهرة التماهي بثقافة المستعمر. وفي كتابها **"الأنا وميكانيزمات الدفاع"** تعتبر **"أنا فرويد"** هذه الظاهرة وسيلة دفاعية يلجأ إليها الإنسان المقهور كتعبير عن شعور بالنقص إزاء المعتدي (المستعمر) وكل ما يرمز إليه، بما في ذلك ثقافته ولغته، وتعبير عن تبخيس الإنسان لذاته بالمقارنة مع المعتدي (المستعمر) الذي يمثل في نظره التفوق والتقدم[5]. وينتشر سلوك التماهي بالمتسلط لدى الشعوب

---

(4) Identification à l'agresseur -

(5) فرويد (أنا)، الأنا وميكانيزمات الدفاع. ترجمة صلاح مخيمر وعبده ميخائيل رزق. مراجعة مصطفى زيور. مكتبة الانجلو المصرية. القاهرة. 1972. ص 119.

مكتبة الفكر الجديد

المغلوبة على أمرها ولدى الأطفال. فالطفل الذي يخاف من عقاب والده يمثل، في اللعب، دور الأب الذي يعاقب أخاه الأصغر. وبذلك يحاول الطفل السيطرة على الخوف من الأب بقلب الأدوار، وكأنه يريد أن يقول محاولا إقناع ذاته : أنا لا أخاف، أنا قوي، هو الذي يخاف، هو ضعيف.

وظاهرة التماهي بالمتسلط ليست مقصورة على فئة دون أخرى، فقد تشمل مختلف الشرائح الاجتماعية مهما اختلفت درجة ترتيبها في السلم الاجتماعي.[6] فحتى " شاوش " (فرّاش) المدير يتماهى بمديره ويسقط السلطة التي تمارس عليه على من هم أدنى منه. وكلنا يعرف أو عانى من قمع كاتبة مسؤول أو " الشاوش " الذي يجلس بباب هذا المسؤول، ويصل القمع أحيانا درجة تجعلك تتوهم أن الكاتبة ربما كانت هي المديرة الفعلية أو أن " الشاوش " ربما كان هو المدير الحقيقي بما يمارسه من سلطوية على الآخرين.

خطر الاستعمار النفسي أشد وأقوى :

قد يفهم من دفاعنا عن لغتنا العربية بأن الأمر يتعلق بموقف شوفيني متشنج يرفض الانفتاح على الثقافات الأخرى. وهذا ما نفيناه في البداية عندما أكدنا ضرورة معرفة لغة أو لغات أجنبية إلى جانب اللغة القومية. وأحيل من يرون عكس ما ذهبنا إليه إلى قول "**الجنرال دوكول**" في رده على الفرنسيين الذين كانوا يرفعون شعار "الجزائر فرنسية " ويطالبون بدمج الجزائريين في المجتمع الفرنسي. يقول "**دوكول**" بما لديه من رؤية تاريخية متميزة:

---

(6) حجازي (مصطفى)، التخلف الاجتماعي، مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور. معهد الإنماء العربي. بيروت. الطبعة الثانية. 1980. ص130-131.

مكتبة الفكر الجديد

"لايجوز أن تلهينا الأساطير عن الحقائق. هل ذهبتم لرؤية المسلمين (يقصد الجزائريين)؟ هل نظرتم إلى عمائمهم وجلابيبهم؟ ألا ترون أنهم ليسوا فرنسيين. وأولئك الذين ينادون بالإدماج لهم رؤوس عصافير حتى ولو كانوا من العلماء. **حاولوا دمج الزيت بالخل، حركوا الإناء، فبعد لحظة يفترقان: فالعرب عرب، والفرنسيون فرنسيون**"[7].

إن دفاعنا عن لغتنا هو دفاع عن الهوية التي بدون التمسك بها يستحيل كل تقدم وازدهار، لاباعتبارها هوية ثابتة لاتقبل التطور، وإنما باعتبارها هوية متجددة متطورة قابلة للتكيف مع المستجدات كيفما كانت طبيعتها، وقادرة على استيعاب التنوع الفكري والثقافي. وإذا كان بعض مثقفينا قد دعوا إلى تغليب "البرهان" على "البيان" [*] كشرط للتقدم، فإن المعطيات التاريخية تسجل أن اهتمام العرب بلغتهم وببيانهم قد رافق اهتمامهم بمختلف المظاهر الحضارية الأخرى، المادية والمعنوية. فالعرب - كما يقول **حافظ الجمالي** - "عندما كانوا يحسنون الكلام كانوا كذلك يحسنون الحرب والانتصار على الأعداء... وأظن أن العرب سيرتفعون إلى مستوى البيان بقدر ما سيرتفعون حضاريا... إن هذه الفرضية تشبه المغامرة ولكني مقتنع بها أو بوجود نوع من الترابط بين عقليتي البيان والبرهان".[8] وفي الوقت الذي ندعو فيه إلى تعلم اللغات

---

(7) راجـــع : PEYERFITE (Alain), C'était de GAULE. Ed. Fayard. 1995. P 58. -

(*) كما فعل ذلك محمد عابد الجابري في كتابيه «بنية العقل العربي» و«تكوين العقل العربي».

(8) الجمالي (حافظ). المستقبل العربي بين البيان والبرهان. مجلة شؤون عربية. =

مكتبة الفكر الجديد

السائدة في الغرب، للتعرف على ما وصل إليه الغرب من تقدم، إلا أنه في مقابل ذلك يجب أن نتحرر من السيطرة الحضارية للغرب بعد أن تحررنا من سيطرته السياسية. والتحرر من السيطرة الحضارية أصعب بكثير من التحرر من السيطرة السياسية، **لأن "الاستعمار الحضاري** - كما يقول **هشام شرابي** - **هو استعمار نفسي بينما الاستعمار السياسي يستهدف الظاهر والمحسوس فحسب"**[9]. ولمن لايشاطرونا الرأي والذين يتبجحون بالزمن الغربي **"زمن الهجرة إلى الشمال"**، والذين يعتقدون أن اللغة الفرنسية هي عصا موسى التي ستوصلنا إلى الحداثة، نذكرهم بالقرار الذي اتخذه الرئيس الفرنسي السابق " **ميتران** " والذي صادقت عليه الحكومة الفرنسية يوم 23 فبراير 1994 والمتعلق بحماية اللغة الفرنسية من غزو اللغة الانجليزية. وينص هذا القانون على إلزامية استعمال الفرنسيين للغة الفرنسية في جميع اللقاءات والمؤتمرات الدولية وجميع الأندية والمؤسسات العمومية. وحدد القانون المذكور غرامة مالية تتراوح بين ألف وعشرين ألف فرنك فرنسي لكل فرنسي يستعمل مفردات لاتوجد في القاموس الفرنسي الرسمي. وعلى إثر انتهاء القمة الفرنكوفونية بباريس صرح **"ميتران"** غاضبا : **" عندما أسمع أن ممثلين لفرنسا نسوا أن يتكلموا بالفرنسية، فإن ذلك يثير حنق كل من يحبون بلادهم ولغتهم. إن على الذين يرتكبون هذا النوع من الأخطاء الخطيرة أن يقتنعوا بأنهم سيتحملون عواقب ذلك في حياتهم المهنية".**[10]

= القاهرة. مارس ؟ آذار 1994. عدد 77. ص130.

(9) شرابي (هشام)، مرجع سابق ص 125-126.

(10) صحيفة الاتحاد الاشتراكي المغربية بتاريخ 28 أبريل 1994. ص 10.

مكتبة الفكر الجديد

وعندما يربط " **ميتران** " بين تعلق الفرنسي بلغته وبين حبه لبلاده فما ذلك إلا لاعتقاده بأن اللغة الفرنسية بالنسبة للفرنسي تمثل هويته الحقيقية، وتؤكد انتماءه لشعبه ووطنه، بكل ما يعنيه هذا الانتماء من ارتباط بالتراث والثقافة والمصير المشترك. وهذا ما يبرر حنقه من الفرنسيين الذين يتبححون - بدون أي مبرر - بالحديث بلغة غير لغتهم. ما أحوجنا إلى هذا الحنق، وإلى القيام **بحملة تطهير لغوية** تعيد للغتنا القومية مكانتها وإشعاعها. وكما يقول "**غسان زيادة**" ربما ينبغي لنا العودة إلى ما قاله مصطفى سعيد، بطل رواية **الطيب صالح** في "**موسم الهجرة إلى الشمال**" : " إنني أسمع في هذه المحكمة صليل سيوف الرومان في قرطاجة وقعقعة سنابك خيل اللنبي وهي تطأ أرض القدس. البواخر بخرت عرض النيل أول مرة تحمل المدافع لا الخبز، وسكك الحديد أنشئت أصلا لنقل الجنود. ولقد **أنشأوا المدارس ليعلمونا كيف نقول نعم بلغتهم**»[11].

(11) زيادة (غسان)، الفرنكوفونية في لبنان أو الطريق المسدود. صحيفة الحياة. 5.26. 1992 ص16.

مكتبة الفكر الجديد

الأغنية العربية
بين التمويه والصدق في التعبير

"لاتحسبوا أن رقصي بينكم طربا
قد يرقص الطير مذبوحا من الألم"

المتنبي

مكتبة الفكر الجديد

إن تقييم حضارة ما يقوم على أساس مدى الانسجام والتوافق الذي استطاعت هذه الحضارة أن تحققه بين المبادئ والقيم المثالية وبين أنواع السلوك المتبعة. فكلما كانت المسافة قصيرة بين القيم المثالية وبين الواقع المعاش كلما كان سلوك الإنسان أكثر اتزانا وأقل تناقضا وصراعا. والأغنية العربية أين موقعها في هذه المفارقة: مفارقة القيم المثالية والواقع المعاش؟

الأغنية تساعد على فصل الإنسان العربي عن واقعه :

إن الأغنية العربية، منذ زمن طويل، تتناول موضوعا يكاد يكون هو موضوعها الوحيد وهو الحب. في حين أن الواقع العربي ينكر الحب بمعناه الحقيقي ويضرب حوله سورا سميكا من التقاليد والمفاهيم. وعندما نقارن الموقف الصارم الذي يتخذه المجتمع العربي بصفة عامة من العلاقة العاطفية بالتعبير المكشوف عن هذه العلاقة بواسطة الأغنية نلاحظ تناقضا صارخا بين الواقع الذي يعيشه الإنسان العربي وبين ما يعبر عنه من مشاعر وخلجات بواسطة الأغنية.

والتحليل النفسي قد يفيدنا في فهم هذا التناقض. فالأنا الأعلى، التي تمثل سلطة المجتمع، وقد أصبحت سلطة داخلية في ذات الفرد، بلغت درجة من السيطرة والنفوذ بحيث اتخذت موقفا

مكتبة الفكر الجديد

صارما إزاء الرغبات المكبوتة في اللاشعور التي لايسمح لها أن تعبر عن نفسها بكيفية صريحة في مجال الشعور. وبما أن الأغنية هي مجرد تعبير عن حالة نفسية وليست ممارسة فعلية فإنها لاتخضع لرقابة صارمة من طرف الأنا الأعلى وبالتالي كانت فرصة للتنفيس عن الرغبات المكبوتة. وعندما نحاول تطبيق هذا التحليل على الأغنية العربية سنجد أن هذه الأغنية تحاول خلق جو رومانسي أشبه بأحلام اليقظة يستطيع الإنسان العربي أن يجد فيه إشباعا غير مباشر لعواطفه ورغباته المكبوتة. ولهذا فإن الأغنية العربية في وضعها الحالي، سواء من حيث الشكل أو المضمون، تلعب دورا هاما في فصل الإنسان العربي عن واقعه بحيث يستمر في موقف الهروب من هذا الواقع وعدم التصدي له وتحديه. ويكفي للتدليل على ذلك أن نستعيد صورة الجماهير العربية وهي تحتشد في إحدى القاعات لتستمع إلى مغنية أو مغن تعجب بهما، ولنتأمل تجاوب هذه الجماهير وانتقالها إلى عالم خيالي يسمح لها بتحرير عواطفها ولو بكيفية مؤقتة ورومانسية. وعندما تخرج هذه الجماهير لتواجه الواقع بكل ما يمثله من كثافة وسيطرة لايسمح لها بأن تنتقل من المشاركة الوجدانية الرومانسية إلى الممارسة الفعلية.

الأغنية العربية كدغدغة للغريزة الجنسية :

ولكن ماهي طبيعة الحب الذي هو محور الأغنية العربية؟ إن استعراضا سريعا لما يردده الإنسان العربي المعاصر من أغان وما يتفاعل معه ويتأثر به يكشف لنا أن هذه الأغاني لم تبلغ هذه الدرجة من التجاوب والتأثير إلا لأنها مبللة بالرغبة الجنسية، بحيث تصبح الأغنية مجالا للتنفيس عن هذه الرغبة التي يقف منها المجتمع العربي موقف النعامة. والأغنية من هذا المنظار تتيح

مكتبة الفكر الجديد

للإنسان العربي تحقيق تجربة عاطفية بطريقة خيالية كبديل عن التجربة العاطفية الفعلية التي لايسمح المجتمع بممارستها في الواقع. وتتكرر في الأغنية العربية شكوى المحبين من الوشاة والعواذل والحساد... الذين تتحدث عنهم الأغنية بكيفية تجعل منهم صورة منفرة وغير مرغوب فيها، رغم أنهم يقفون إلى جانب الاعراف والتقاليد ويمثلون في الواقع دور الرقيب الذي يمارسه المجتمع على الأفراد الشيء الذي يبرز الطابع القمعي للمجتمع العربي.

ونفس الصورة تتكرر في قصص الحب العربية كقصة " **مجنون ليلى** " وفي القصص الشعبي **كقصة ألف ليلة وليلة**. فهذه القصص مليئة بالإثارة الجنسية وبالعلاقات العاطفية المثيرة والتي تمارس خارج إطار العلاقة الزوجية أي خارج الشرعية المجتمعية، وتقدم صورة منفرة عن الزوج على عكس صورة العاشق أو الحبيب، رغم أن الزوج هو الذي يمثل الشرعية المجتمعية. ولكي تشبع هذه الرغبات الجامحة والمحرمة يلجأ ممارسوها إلى أنماط من السلوك غير المشروع والمنافي للقواعد الأخلاقية والمجتمعية. وعلى الرغم من ذلك تظل هذه الشخصيات شخصيات محببة ويتعاطف معها الجمهور لكون ما يصدر عنها من سلوك "يتجاوب مع رغبات عميقة في نفس كل إنسان يعيش حياة المجتمع الرتيبة وتتوق نفسه لتحقيق التجربة العاطفية العنيفة " [1].

إن وصف قيس بن الملوح بـ " المجنون " لأنه أحب ليلى

---

(1) العظم (جلال صادق) في الحب والحب العذري. دار الكتاب العربي. طرابلس ودار العودة. بيروت. 1974. ص.69

مكتبة الفكر الجديد

العامرية قد يكون مؤشرا من ناحية على أن الأمر يتعلق بعاطفة تمارس خارج إطار الشرعية المجتمعية، ومن ناحية أخرى وسيلة للإفلات من رقابة المجتمع. " ولما كان الحب واحدا من النشاطات المحرمة، وكانت ممارسته تعتبر خروجا على أعراف المجتمع ولوائحه المكتوبة. فقد وجد العرب في الجنون الحل الوحيد الذي يكفل لهم ارتكاب مخالفة الحب دون أن يكونوا مسؤولين عنها باعتبار أن الجنون يسقط عن الفاعل مسؤولية الفعل". [2]

الحزن هو الطابع العام للأغنية العربية :

والطابع العام الذي يطبع الأغنية العربية هو طابع الحزن، ، بل إن هذا الطابع نلحظه في معظم ما يصدر عن الوجدان العربي بصفة عامة. وللحزن العربي طابع خاص. إنه تعبير عن فشل الإنسان العربي في مواجهته للطبيعة والآخرين. وتكرار الفشل واستمراره يؤدي إلى الانطواء على الذات واتخاذ موقف حذر من الخارج، وبذلك يعيش الإنسان العربي فشله باعتباره مأساة فردية وشخصية، فتضعف علاقته بالآخرين وبالطبيعة، وتتضخم الذات تضخما يقترب من التضخم المرضي.

وفي هذا الإطار، يصبح الحزن هو الطابع العام للتعبير عن الوجدان العربي الذي يعاني من التمزق والقلق بسبب الهوة الكبيرة التي تفصل الواقع المعاش للإنسان العربي وما يشعر به من رغبات وحاجيات أولية لايستجيب الواقع لها. وعلى صعيد الأغنية العربية

---

(2) قباني (نزار)، استجواب أجرته معه مجلة الأسبوع العربي. بيروت. 5 أغسطس 1974. ص. 9

مكتبة الفكر الجديد

نرى أن الحزن يبلغ درجة كبيرة من الوضوح والتكرار، وكأن الإنسان العربي يستمتع بالألم والحزن اللذين يخلقان جوا مأساويا ينسجم مع ما تعانيه الذات من صراع بسبب فشلها في مواجهة الواقع.

ولو استعرضنا ما يروج في الساحة العربية من الأغاني لتبين لنا أن معظمها يغلب عليه طابع الحزن و" الأسى والشجن، وبكاء الذكريات، والنواح على الحبيب وعلى الصبا والأيام الذهبية وعلى الفقيد... " [3] مما يعكس الشعور بالضعف والعجز والنظرة الدونية إلى الذات... إلى غير ذلك من المشاعر التي تكشف عن نزعة "ماسوشية " واضحة. والمجتمع العربي باعتباره مجتمعا سلطويا يفرز هذين الموقفين المتناقضين اللذين يتفاوتان في حدتهما من شخص لآخر ومن جماعة لأخرى واللذين يتجليان على شكل رغبة في الخضوع من ناحية (نزعة ماسوشية) ورغبة في الهيمنة من ناحية أخرى (نزعة سادية) [4]. والأغنية العربية، على العموم تجسد الرغبة " **الماسوشية** " نزعة التلذذ بالألم حتى أنها تتحول في كثير من الأحيان إلى ما يشبه اجترار العذاب حيث **يتغنى الإنسان بألمه وبمأساته ويندب حظه العاثر الذي لم يتح له تحقيق ما يريد.**

وقلما نجد، في هذا الكم الهائل من الأغاني التي يتغنى بها الإنسان في الوطن العربي، أغاني تنضح بالفرح والتفاؤل والأمل،

---

(3) زيعور (علي)، التحليل النفسي للذات العربية. دار الطليعة. بيروت. 1977. ص 77.

(4) فروم (إريك)، الخوف من الحرية، ترجمة مجاهد عبدالمنعم مجاهد. المؤسسة العربية للنشر. بيروت. 1972. ص18.

مكتبة الفكر الجديد

وكأن الإنسان العربي، الذي يعاني من القهر والإحباط...، لايرى نفسه إلا في الأغنية الحزينة التي تعكس معاناته الوجودية الأليمة.[5]

ويدرك بعض مغنينا، بنوع من الحدس، العلاقة بين أغانيهم وبين معاناة الإنسان العربي الذي يتوجهون إليه. فهذه المطربة اللبنانية **فيروز** تقول : " إننا محكومون بنهاية ما، وهذا الهاجس اللاواعي الذي يستقر في أعماقنا يجعلنا مرغمين على مزج أشد حالات الفرح بأشد حالات الحزن ". أما المطربة فايزة أحمد فتربط بكيفية واضحة بين مايسود الأغنية العربية من شعور باللوعة والألم... وبين واقع الإنسان العربي، وتؤكد " بأن **استئصال الظلم الاجتماعي من الواقع العربي كفيل بانتشار الأغنية العربية من لوعتها وإضفاء الفرح عليها** ".[6]

الأغنية العربية كتعبير عن حرمان وجودي :

إن الإنسان العربي يتأثر بالأغنية العربية لأنها تتناول موضوعا لايستطيع أن يتناوله على صعيد الواقع بكيفية صريحة ومنطقية. ففي الواقع عليه أن يبدي أقصى ما يمكن من التمسك بالعادات والتقاليد التي ترسم له حدود سلوكه بما في ذلك عواطفه وانفعالاته، ونتيجة لذلك، تصبح حياته مملة رتيبة وقلما تعرف العواطف العنيفة. والأغنية توفر للإنسان العربي أن يعيش، خياليا وعن طريق المشاركة الوجدانية، العواطف العنيفة. وإذا كان الوسط النسائي أكثر

---

(5) حجازي (مصطفى)، التخلف الاجتماعي، مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور. معهد الإنماء العربي، بيروت - 1980. ص 93 - 94.

(6) صحيفة العلم المغربية، 3 يونيو 1978، ص5.

مكتبة الفكر الجديد

تأثرا بالأغنية العربية فلأن **المرأة العربية** أكثر قمعا من الرجل، فهي **تعاني القمع مرتين: قمع المجتمع وقمع الرجل**، وقلما يسمح لها بأن تمارس تجربة عاطفية فعلية باعتبارها علاقة شرعية وإنسانية. والموقف العام الذي يتخذه الإنسان العربي من المغنين يكشف عن هذا التناقض : فالمغني لكونه يعبر في غنائه عن الحب الذي لا يعترف المجتمع بشرعيته، يعيش خارج إطار الشرعية التي حددها المجتمع كنموذج للسلوك. فالمغنون قلما يتزوجون وإذا ما تزوجوا فإن زواجهم ليس كزواج بقية الناس، وكثيرا ما يطلقون، بحيث تظل حياتهم مثقلة بالتجارب العاطفية العنيفة وتبتعد عن الرتابة المملة لحياة الإنسان العادي. والذي يستدعى الوقوف عنده هو أن غالبية الناس تتأثر وتنفعل للأغنية العربية، رغم أنها تغني الحب الذي يتنكر المجتمع له، كما أن غالبية الناس تعجب بحياة المغنين وتتبع أخبارهم رغم أن فيها الكثير من الخروج عن النمط الرتيب للسلوك الذي حدده المجتمع. إن الأغنية العربية بناء على هذا التحليل تلعب **دورا مزدوجا**: فمن ناحية **تعبر عن موضوع الحب الذي يتنكر له المجتمع، ومن ناحية أخرى تعتبر وسيلة للتنفيس عن الصراع الذي تعاني منه الذات بسبب إحباطاتها ومخاوفها...**

من خلال الطابع الحزين والمأساوي للأغنية العربية يبدو وكأن الغاية التي ترمي إليها الأغنية العربية هي أن تستجدي عطف الذي يسمعها لكونها تعبر عن مأساة إنسان مهزوم : هزم في مواجهة واقعه، وهزم في مواجهة عواطفه، فكانت العودة إلى الذات والتقوقع فيها مظهرا لهذه الهزيمة. والمهزوم يجد لذة في أن يستدر عطف الآخرين، وفي أن يسقط انهزامه على الظروف والقدر...

مكتبة الفكر الجديد

الشيء الذي يبرر سلوكه الانسحابي والهروبي. والواقع إن إيديولوجية الاستبداد التي تسود المجتمع العربي تفرض هذا النوع من السلوك منذ الطفولة حيث يُعوَّد الطفل أن يتفادى المواجهة والتحدي للصعوبات التي تعترضه، وأن يظهر - وبكيفية مبالغة - أنه مظلوم وعاجز بحيث يستدر العطف والرثاء. فإذا كنا نعاقب دائما الطفل الذي يعتدي على طفل آخر ونكافئ المعتدى عليه، فإن هذا الأخير سيتعود أن لايرد على الاعتداء بالمثل وأن يبالغ في إثارة عطفنا ورثائنا له لكونه هو الضحية. ألا نجد هذه الصورة تتكرر ونحن نسمع الأغنية العربية وهي مشحونة بالنحيب والبكاء والحسرة...؟ وفي هذا الصدد يقول **مصطفى حجازي** : " إن السوداوية الشائعة في أغاني الجماهير المقهورة، لاتعبر عن الحرمان الجنسي الفعلي فقط، بل هي وسيلة للتعبير عن الحرمان الوجودي. قسوة الحبيب وتجاهله ليسا سوى الرمز لقسوة الحياة ووطأتها... وحدة المحب وعذابه يعكسان عجز الإنسان المقهور إزاء الطبيعة والحياة واعتباطها، وتثيران أشد حالات انعدام الشعور بالأمن..."[7].

ونظرا لكون المجتمع العربي يتنكر لعاطفة الحب، فإن الأغنية، في وضعها الحالي تبعد الإنسان العربي عن واقعه. أما المغنون، فلأنهم يغنون الحب، فهم يعيشون بعيدين عن واقع الإنسان العربي، ويقدمون أغانيهم كمخدرات تعفي الإنسان العربي من مواجهة الواقع وتحديه. لذا كثيرا ما نرى أن المغني في المجتمع العربي يقود عملية التضليل والتهريج التي ترمي إلى عدم مواجهة

(7) حجازي (مصطفى)، مرجع سابق.

مكتبة الفكر الجديد

الواقع مواجهة صريحة. أما عندما تضع الأغنية كهدف لها فضح الواقع وما يكتنفه من تناقضات عند ذلك تعمل الأغنية على التصاق الإنسان بواقعه اتصالا واعيا، فتساعد لاعلى تخدير الإنسان وتنويمه وإنما على تغيير واقعه والقضاء على تناقضاته. وفي مثل هذه الحالة تصبح الأغنية مؤشرا يحسب له حساب من طرف الذين لايريدون التغيير.

مكتبة الفكر الجديد

المحتويات

تقديم .....
1- المجتمع العربي الأبوي السلطوي والتمويه .....
2- التمويه كتعزيز للإيديولوجية الأبوية السلطوية .....
3- المساومة على الحرية والتخلي عن التلقائية
كإفراز للتمويه .....
4- التلقين كفضاء للتمويه والاستبداد .....
5- التمويه وظاهرة سوء الظن .....
6- الخرافة وسيلة التمويه المفضلة للإيديولوجيا السلطوية .
7- التمويه وازدواجية الحسد والمجاملة .....
8- التمويه يفرز إنسانا متذبذبا : فكرا وممارسة .....
9- التمويه وثنائية القول والفعل .....
10- القراءة كوسيلة لانهيار جدار التمويه ولترسيخ
قيم المعرفة والديمقراطية .....
11- تمويه المثقف العربي وموقفه من المرأة .....
12- التمويه، وعقدة اللغة الأجنبية أو الاستعمار النفسي ...
13- الأغنية العربية بين التمويه والصدق في التعبير .....

مكتبة الفكر الجديد

التمويه والكذب يلتقيان في هدف واحد وهو حجب الحقيقة، لكنهما يختلفان في أسلوبهما في حجب الحقيقة.

في الكذب تنفى الحقيقة وتستبدل بكذبة. أما في التمويه فالحقيقة لا تنفى، ولا تظهر بشكل كذبة، بل تظهر بشكل حقيقة أخرى تدعي أنها الحقيقة الصحيحة. الكذب عملية واضحة وسهلة أما عملية التمويه فصعبة ومعقدة.

في هذا الإطار، يتضح لنا هدف مؤلف هذا الكتاب الصغير في حجمه والكبير في مرماه، وهو كسر حلقة التمويه المفرغة على الصعيدين الفردي والاجتماعي.

د. هشام شرابي

محمد عباس نور الدين: كاتب لبناني مقيم في المغرب، وعضو في اتحاد كتّاب المغرب.

أستاذ التعليم العالي بالمعهد الملكي لتكوين الأطر، وكلية علوم التربية.

دكتور في علم الإجتماع من كلية الآداب بجامعة عين شمس بالقاهرة.

الإنتاج العلمي

- سلسلة من الكتب المخصصة لطلبة البكالوريا (فلسفة، علم إجتماع، علم نفس).
- كتاب «التنشئة الاجتماعية للطفل». سلسلة المعرفة للجميع.
- كتاب «قضايا الشباب في المجتمع المعاصر».
- كتاب «أولادنا أكبادنا»، حوارات مع الآباء.

المركز الثقافي العربي

ص ب ١١٣/٥١٥٨ بيروت - لبنان

ص. ب 4006 - الدار البيضاء - المغرب

مكتبة الفكر الجديد